أثر الإسلام فى شعر أبى تمام

(رؤية تحليلية)

الدكتور / عبده إبراهيم أحمد حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد ..

لئن كان الشعراء فى العصر الأموى قد نأوا بأنفسهم عن التفلسف والشك والزندقة لغلبة سلطان الدين على النفوس ، ولعدم اختلاط المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات والمذاهب ، فإن بعضا من الشعراء فى العصر العباسى قد وقعوا فى هذا الشَّرَك ، لما صارت الدولة بوتقة انصهرت فيها شتى الأجناس البشرية ، بعاداتها ، وتقاليدها، ومعتقداتها ، وحضاراتها ، ومذاهبها .

وقد تنبه الخلفاء العباسيون لهذا الخطر الجسيم ، وبخاصة ما كان من الزنادقة ، فتعقبوهم حيث كانوا ، وأعملوا فيهم سيوفهم . يقول المسعودى : " أمعن المهدى فى قتل الملحدين والمداهنين فى الدين لظهورهم فى أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب " مانى " و " ابن ديصان " و " مرقيون " مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره ،

وترجمه من الفارسية ، والفهلوية الى العربية ، وما صنف من ذلك "ابن أبى العوجاء" و "حماد عجرد" و "يحيى بن زياد" و "مطيع ابن إياس" من تأييد المذاهب المنانية، والديصانية، والمرقيونية، فكثرت بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس " (١) .

وقد استجاب بعض الشعراء لهذا الوافد الجديد ، وجهروا به فى أشعارهم ، الأمر الذى جعل الخلفاء يقتلون كثيراً من الشعراء حداً على خروجهم ، وتزندقهم (٢) .

وإذا كانت هذه الظاهرة قد شاعت فى العصر العباسى فليس معنى ذلك أنها قد أصبحت سمة العصر التى لم ينفك عنها الشعراء ، فما زالت الكثرة الكثيرة من الشعراء متمسكة بإيمانها ، حريصة على دينها ملتزمة بقيمها الإسلامية . ولا ينفى ذلك ما بدر منهم من الخروج عن المثالية الخُلقية للإسلام (فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس ، كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة لكنها لم تكن عامة فى المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ، ومن حولهم من الشعراء والمغنيين) (٣) .

وإذا كانت بداية العصر العباسى قد شهدت هذه الحركة ، التى قادها بعض الشعراء ضد الإسلام والمسلمين ، فإن أواسطه قد شهدت ميلاد شاعر وقف نفسه وفنه للدفاع عن الإسلام والمسلمين ذلكم " أبو تمام " حبيب بن أوس الطائى " ، المختلف فى ميلاده ، والمختلف فى وفاته ، والمختلف فى عروبته ، والمختلف فى فنه ، والمختلف فى عقيدته ، وما

---

(١) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف . ص ٨٠ دار المعارف . القاهرة .
(٢) من أشهر الزنادقة : عبدالله بن المقفع ، وقد قتله الخليفة المنصور ، وصالح بن عبدالقدوس ، وبشار بن برد ، وحماد عجرد ، وعبدالكريم بن أبى العوجاء ، وقد قتلهم الخليفة المهدى .
(٣) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ص ٨٣ .

أظن شاعراً – فيما أعلم – قد نال هذا الكم من الاختلاف ولا أحسب ذلك إلا لما تفرد به أبو تمام : من قدرات شخصية ، ومواهب فذة ، وذكاء حاد، وذاكرة قوية ، وبديهة حاضرة ، وطموح إلى تحقيق الذات، والسعى وراء هذا الطموح، على الرغم من الصعوبات ، مما دفع به شاعراً متفرداً بين قرنائه الأمر الذى أدى إلى كثرة حساده ، ومن لا يفهمون فنه وتجديداته ، فراحوا يلوكونه بألسنة حداد ، ولما كان فنه شامخاً لا يناطح ، دفعتهم حيرتهم ، وغيرتهم إلى النيل من شخصه فحرفوا عروبته ، وجرحوا نسبه، وشككوا فى عقيدته .

لعل ذلك كله وغيره قد دفعنى إلى اختيار الجانب الإسلامى فى شعر أبى تمام موضوعا للدراسة ، إذ إننى وجدت تناقضاً شديداً بين ادعاءات وآراء كثير من النقاد فى عقيدة أبى تمام وبين ما جادت به قريحته ، من شعر يفيض بالروحانية الايمانية ، والعقيدة الراسخة .

إن تصحيح آراء كثير من النقاد فى عقيدة أبى تمام كان الدافع الرئيس من وراء هذا البحث حيث إن ديوانه الشعرى خير شاهد ومدافع عن عقيدته . لذا فإن كشف اللثام عن هذا الجانب بات أمراً ضرورياً ، وواجباً شرعياً ، لدفع هذه التهم عن مثل هذا الشاعر . ويضاف إلى ذلك أمر آخر يتمثل فى أن شعره الاسلامى يشتمل على كثير من الجوانب الفنية الجديرة بالبحث والدراسة .

ومن ثم فإن منهج الدراسة سيقوم على استجلاء أثر الإسلام ، من خلال موضوعات شعره ، على النحو التالى :

الباب الأول : { أثر الإسلام فى مضمون شعر أبى تمام .. }

الفصل الأول :{ أثر الإسلام فى المعانى والأفكار .. }

الفصل الثانى :{ أثـــر الإســـلام فى العاطفـــــة .. }

الباب الثانى : { أثر الإسلام فى أدوات التعبير ووسائل التصوير .. }

الفصل الأول :{ أثـــر الإســـــلام فى الألفـــــاظ والتراكيب .. }

الفصل الثانى :{ أثر الإسلام فى الخيال والتصوير .. }

وقبل هذه المباحث قدمت تمهيداً ، عرفت فيه – بإيجاز – بأبى تمام، وتعرضت فيه للكشف عن ثقافته ، وروافدها ، وبخاصة الروافد الإسلامية ، كما وقفت أمام تدينه ، فعرضت لآراء النقاد ، وناقشت ما عرضوه ، كما أشرت إلى قضية تشيعه ، ومدى صحة القول بها ، فلا شك أن دراسة مثل هذه الجوانب تكشف عن عقيدة الشاعر ، وتعيننا على فهم ، وتحليل كثير من الجوانب فى بناء شخصيته .

- **أبو تمام (المولد والنشأة)**

هو : حبيب بن أوس الطائى ، تكاد تجمع الآراء على عروبته ، فهو عند الصولى : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى صليبة [١] . وفى الأغانى : أنه من نفس طيئ صليبة [٢] . وكذلك عند " ياقوت الحموى " فى معجم الأدباء ، وعند " الجاحظ " فى المحاسن والأضداد ، كما يلقبه بالطائى : المبرد ، وابن الأثير ، ومعظم كتب الأدب والتراجم .

ولم يخرج عن هذا الاجماع سوى قلة من خصومه ، كـ " مخلد بن بكار الموصلى " ، الذى كان شديد الهجاء لأبى تمام حتى بعد وفاته . حيث ادعى أن أبا تمام ليس من طيء. وقد قيل لأبى تمام : (قد هجاك مخلد فلو هجوته . قال : الهجاء يرفع منه . قيل : أليس هو شاعراً ؟ قال : لو كان شاعراً ما كان من الموصل . يعنى أن الموصل لم تخرج شاعراً) [٣] .

---

(١) أخبار أبى تمام (لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى) تحقيق خليل عساكر ، ومحمد عبده عزام ، نظير الإسلام الهندى ، المكتب التجارى للطباعة والنشر .

(٢) الأغانى (لأبى الفرج الفرج الأصبهانى ٣٥٦ هـ) ٣٨٣/١٥ تحقيق عبدالسلام هارون . دار الكتب .

(٣) أخبار أبى تمام الصولى : ٢٣٤ وانظر فى ترجمته أيضا :
طبقات الشعراء المحدثين (لابن المعتز ت ٢٩٦ هـ) ص ٢٨٢ تحقيق عبدالستار أحمد فراج دار المعارف الأغانى (لأبى الفرج الأصبهانى ت ٣٥٦ هـ) ج ٣٨٣/١٥ وما بعدها تحقيق عبدالسلام هارون دار الكتب .
الفهرست (لابن النديم ت ٣٨٥ هـ) ص ٢٤١ مطبعة الاستقامة القاهرة . المكتبة التجارية ، الموشح (للمرزبانى ت ٣٨٤ هـ) ص ٣٠٣ تحقيق محمد البجاوى . دار نهضة مصر ١٩٥٦م .
معجم الأدباء (لياقوت الحموى ٦٢٦ هـ) طبعة دار المأمون .
وفيات الأعيان (لابن خلكان ت ٦٨١ هـ) و : النجوم الزاهرة (لابن تغرى بردى ت ٨٧٤ هـ) أخبار سنة ٢٣١ هـ طبعة دار الكتب ١٩٣٠م و : هبة الأيام فيم يتعلق بأبى تمام (ليوسف البديعى الموصلى ت ٠٩٧ هـ) تحقيق : محمود مصطفى . مطبعة العلوم ١٩٣٤م .
كذلك ينظر : تاريخ الأدب العربى (لكارل برو كلمان) ج ٧١/٢٠ . نقله للعربية عبدالحليم النجار . دار المعارف .
دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول / ٢٣٠ طبعة ١٩٣٣م .
العصر العباسى الأول د/ شوقى ضيف . ص ٢٦٨ وما بعدها . دار المعارف .
أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره د/محمد نجيب البهبيتى مكتبة الخانجى. الطبعة الثانية ١٩٧٠م

ولعل ترفع أبى تمام عن الرد على مخلد قد أوغر صدره ، وأثار ضغنه ، فهجاه بما هجاه به ، وجرده من عروبته .

وتختلف الآراء فى مولد أبى تمام ، فهو المولود ما بين : ١٧٢هـ، و١٨٨هـ ، و١٩٠هـ . وإن كان الراجح أنه مولود ١٨٨هـ .

أما موطن ميلاده فبقرية تدعى "جاسم" قريبة من دمشق . وقد عاش أبو تمام منذ طفولته متنقلاً بين الشام ، ومصر ، وبغداد وخراسان، وأرمينية ، وسر من رأى ، والحجاز ، والموصل . فهو كما يقول [١] :

خليفة الخضر من يربع على وطـن ... فى بلدة فظهور العيس أوطـانى
بالشام أهلى ، وبغداد الهوى ، وأنـا ... بالرقتين ، وبالفسطاط أخـوانى
وما أظن النوى ترضى بما صـنعت ... حتى تطوِّح بى أقصى خراسان

ولا شك أن هذه الرحلات قد صقلت موهبته ، وشحذت همته حتى دفعت به شاعراً غواصاً على ما يستصعب من المعانى ، بحاثاً عن كل جديد ، مخالفاً للعصر والشعراء ، متميزاً على الأنداد والقرناء ، حتى ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهماً بالشعر فى حياته . فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه . ولعل ذلك قد جعل الناس بين متعصب لجيد شعره ، ومفرط فى تعديد رديئه .

ولم يكن أبو تمام مجرد شاعر ، فله من التصانيف العديد ، منها : ديوان الحماسة – الوحشيات – نقائض جرير والأخطل – مختار أشعار القبائل – إضافة إلى ديوان شعره [٢] .

---

(١) الديوان : ١٥٦/٢ .
(٢) انظر الأعلام : لـ (الزركلى) ١٦٥/٢ .

وفى سنة : ٢٣١ هـ يسكت صوت أبى تمام ، ويدفن جسده ، لكن يبقى شعره خالداً ، تردده الألسن على مر الأجيال .

ثقافتـه :

يعد أبو تمام من أشهر مثقفى الشعراء العرب بالمفهوم العام للثقافة، إذ لم تقتصر ثقافته على الأدب ، وما يتصل به من علوم ، إنما شملت شتى أنواع الثقافة فى عصره ، من عربية تتكئ على التراث ، وتتمثل فى الشعر والأخبار والأنساب ، وعربية إسلامية جديدة ، تتمثل فى علوم العربية : من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وعلم كلام ، وثقافة أجنبية وافدة (هندية ، ويونانية ، وفارسية) .

وقد أخذ أبو تمام نفسه بكل هذه الثقافات منذ شبابه ، أضف إلى ذلك رحلاته ، التى شرق فيها وغرب ، فقد أدت دوراً هاماً فى تشكيل تفكيره ، ونمو إدراكاته ، ولا يخفى على مطالعى ديوانه التدليل على ذلك .

وقد وقف إلى جانب هذه المعارف المتحصلة استعداد فطرى لدى الشاعر ، دفعه إلى حب البحث عن المعرفة أينما كانت ، يعينه على ذلك بديهة حاضرة ، وذهن متوقد ، ولعل قصته فى مجلس المعتصم تعد دليلاً على شدة ذكائه ، وحضور بديهته . فيروى أن أبا تمام كان ينشد المعتصم سينيته حتى وصل إلى قوله :

إقدام عمرو ، فـى سـماحة حـاتم فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس[1]

---

(١) ديوان أبى تمام : ٣٦٢/١ شرح الخطيب التبريزى تقديم : راجى الأسمر . دار الكتاب العربى لبنان .

وهنا قاطعه الفيلسوف " أبو يوسف الكندى " قائلا : الأمير فوق ما وصفت فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال :

لا تنكروا ضربى لـــه من دونـــــه مثلاً شروداً فى الندى والبـــاس
فـــالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره مثلاً مـــن المشـــكاة والنـــبراس

أى لا تنكروا قولى : إقدام الخليفة كإقدام عمرو ، وهو أشجع منه، وذكاؤه كذكاء إياس وهو أذكى منه ، لأن الله تعالى قد شبه نوره بما هو أقل منه ، إذ كان المشبه به من أبلغ ما يعرفه الناس ضوءاً ، فقال تعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

(النور : ٣٥)

وكان أبو تمام قد أنشد القصيدة وليس فيها هذان البيتان ، فلما زادهما أعجب به المعتصم ، وأعجب الحاضرون من فطنته ، وذكائه وهذه البديهة الحاضرة ، والذاكرة المتوقدة – لا شك – أنها هى التى أعانته على حفظ أكثر من أربعة عشر ألف أرجوزة من الشعر ، على ما يرويه ابن خلكان " (١) كما أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء ، على حد قول " ابن رشيق " (٢) لقد نهل أبو تمام من مختلف روافد المعرفة ، وظهر ذلك جلياً فيما سجلته أشعاره .

---

(١) وفيات الأعيان (أبو العباس شمس الدين بن خلكان) تحقيق إحسان عباس . دار صادر بيروت .
(٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده (لأبى الحسين بن رشيق القيروانى : ت ٤٦٣ هـ) تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد بيروت . دار الجيل للنشر . ١٩٧٢م .

وقد كان القرآن الكريم المنهل العذب ، الذى غرف من حياضه ، وسبغ به شعره ، فأخرجه إخراجاً ، جعل له فى النفوس علوقا ، وفى القلوب عروشا ، " ولا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن الكريم تأثر أبى تمام به ، فإن القارئ لا يكاد يمضى فى الديوان حتى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم، وأوضح مثل لذلك قصيدته فى مدح المعتصم ، وذكر إحراق الإفشين وصلبه ، ففيها كأنما أخذ القرآن بلبه ، واستأثر بخياله . "

وبعد أن عرض الدكتور البهبيتى للنماذج علق قائلا : فهاهى ذى سبعة مواضع فى قصيدة واحدة يقتبس فيها من القرآن لفظا ومعنى ، وفيها نفسها يشير إلى القرآن مرتين) (١) .

وإذا كانت قصيدة واحدة قد حوت تسعة مواضع ، تجلى أثر القرآن الكريم فيها ، فما بالنا حين نتصفح كل ديوانه ، بما اشتمل عليه من موضوعات ؟ ، لا شك أننا سنكشف عن جانب مهم من جوانب ثقافته الإسلامية ، والتى كان القرآن المحور الأساس فيها ، ففى إطار معانيه وألفاظه سخر شعره ، وأصاب هدفه ، ولا أحسب أن معانى القرآن وألفاظه الواردة فى شعره مجرد إشارات عابرة .

ويأتى الحديث النبوى رافداً ثراً ومصدراً من مصادر ثقافته الرئيسة، ويتجلى أثره فيما ساق من معان نبوية ، وأحكام شرعية ، وقيم أخلاقية ، حث عليها المصطفى ﷺ وقد ذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن أبا تمام من المحدثين ، وروى له حديثا عن رسول الله ﷺ . قال الحافظ : أخبرنا أبو الحسن ، أنبانا القاضى أبو المظفر بن إبراهيم بن

---

(١) أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره . د/ نجيب البهبيتى ٦٧ : دار الفكر . مكتبة الخانجى الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

وهنا قاطعه الفيلسوف " أبو يوسف الكندى " قائلا : الأمير فوق ما وصفت فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال :

لا تنكروا ضربى لـــه من دونـــــه مثلاً شروداً فى الندى والبـــاس
فـــالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره مثلاً مـــن المشـــكاة والنـــبراس

أى لا تنكروا قولى : إقدام الخليفة كإقدام عمرو ، وهو أشجع منه، وذكاؤه كذكاء إياس وهو أذكى منه ، لأن الله تعالى قد شبه نوره بما هو أقل منه ، إذ كان المشبه به من أبلغ ما يعرفه الناس ضوءاً ، فقال تعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
(النور : ٣٥)

وكان أبو تمام قد أنشد القصيدة وليس فيها هذان البيتان ، فلما زادهما أعجب به المعتصم ، وأعجب الحاضرون من فطنته ، وذكائه وهذه البديهة الحاضرة ، والذاكرة المتوقدة – لا شك – أنها هى التى أعانته على حفظ أكثر من أربعة عشر ألف أرجوزة من الشعر ، على ما يرويه ابن خلكان " [1] كما أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء ، على حد قول " ابن رشيق " [2] لقد نهل أبو تمام من مختلف روافد المعرفة ، وظهر ذلك جلياً فيما سجلته أشعاره .

---

(١) وفيات الأعيان (أبو العباس شمس الدين بن خلكان) تحقيق إحسان عباس . دار صادر بيروت .
(٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده (لأبى الحسين بن رشيق القيروانى : ت ٤٦٣ هـ) تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد بيروت . دار الجيل للنشر . ١٩٧٢م .

وقد كان القرآن الكريم المنهل العذب ، الذى غرف من حياضه ، وسبغ به شعره ، فأخرجه إخراجاً ، جعل له فى النفوس علوقا ، وفى القلوب عروشا ، " ولا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن الكريم تأثر أبى تمام به ، فإن القارئ لا يكاد يمضى فى الديوان حتى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم، وأوضح مثل لذلك قصيدته فى مدح المعتصم ، وذكر إحراق الإفشين وصلبه ، ففيها كأنما أخذ القرآن بلبه ، واستأثر بخياله . "

وبعد أن عرض الدكتور البهبيتى للنماذج علق قائلا : فهاهى ذى سبعة مواضع فى قصيدة واحدة يقتبس فيها من القرآن لفظا ومعنى ، وفيها نفسها يشير إلى القرآن مرتين) [1] .

وإذا كانت قصيدة واحدة قد حوت تسعة مواضع ، تجلى أثر القرآن الكريم فيها ، فما بالنا حين نتصفح كل ديوانه ، بما اشتمل عليه من موضوعات ؟ ، لا شك أننا سنكشف عن جانب مهم من جوانب ثقافته الإسلامية ، والتى كان القرآن المحور الأساس فيها ، ففى إطار معانيه وألفاظه سخر شعره ، وأصاب هدفه ، ولا أحسب أن معانى القرآن وألفاظه الواردة فى شعره مجرد إشارات عابرة .

ويأتى الحديث النبوى رافداً ثراً ومصدراً من مصادر ثقافته الرئيسة، ويتجلى أثره فيما ساق من معان نبوية ، وأحكام شرعية ، وقيم أخلاقية ، حث عليها المصطفى ﷺ وقد ذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن أبا تمام من المحدثين ، وروى له حديثا عن رسول الله ﷺ . قال الحافظ : أخبرنا أبو الحسن ، أنبانا القاضى أبو المظفر بن إبراهيم بن

---

(١) أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره . د/ نجيب البهبيتى ٦٧ : دار الفكر . مكتبة الخانجى الطبعة الثانية ، ١٩٧٠م .

نصر النسفى ، أنبأنا عبدالحى بن عبدالله بن موسى الجوهرى بن الفضل الشاعر ، أنبأنا خالد بن يزيد الشاعر ، حدثنى أبو تمام حبيب من أوس الشاعر ، حدثنى صهيب بن أبى الصهبان (الصهباء) الشاعر ، حدثنى الفرزدق : همام بن غالب الشاعر ، حدثنى عبدالرحمن بن حسان بن ثابت الشاعر ، حدثنى أبى حسان بن ثابت الشاعر قال : قال رسول الله ﷺ : (يا حسان اهجهم وجبريل معك) ، وقال : (إن من الشعر لحكمة) وقال لى : (إذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان) [1] .

هذا وإن لم يكن أبو تمام من المحدثين الذين شهروا برواية الحديث، فإن فى روايته لهذا الحديث ما يعكس حسن ظن الناس فيه وإلا لو كان مشكوكا فى عقيدته ما قبلوا منه الرواية .

ومورد ثالث من موارد الثقافة الإسلامية أخذ به أبو تمام نفسه يتمثل فى معرفته بالتاريخ الاسلامى ، وتوظيفه توظيفاً يخدم أغراضه . فهو ملم بأحداث الغزوات الإسلامية ، عارف بأسبابها ، ونتائجها ، ومن ثم فهو دائم التأثر بها ، واستحضار أحداثها ، وما أشبه معارك الخلفاء فى عصره ببدر ، وأحد ، وحنين ، وكربلاء .

وثمة رافد آخر شكل جانبا من جوانب ثقافة أبى تمام الإسلامية حين تزود بالعلوم الشرعية من فقه ، وعلوم قرآن ، وتفسير ، وعلوم كلام .

ولا يخفى أثر هذه العلوم فى شعره . فما أكثر المصطلحات التى تجدها منثورة فى شتى موضوعات ديوانه : كالواجب ، والجائز

---

(١) انظر : تاريخ دمشق لـ (الحافظ أبى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر ٤٩٩ – ٥٧١ هـ) تراجم حرف الألف . تحقيق د/ شكرى فيصل ، سكينة الشهابى ، مطبوعات مجمع اللغة – دمشق .

والفرض، والنفل ، والحلال ، والحرام ، والسهو ، وسنة الاختضاب ومشروعية الأذان الثانى ، وتعظيم يوم الجمعة ، وغير ذلك .

هذه أهم روافد ثقافة أبى تمام الإسلامية ، تكاد لا تخفى على قارئ لديوانه ، فى أى باب من أبوابه . وقد آثرت عدم التدليل عليها من الشعر، خشية التطويل من جهة ، واجتناباً للتكرير من جهة أخرى ، حيث يقوم البحث على استجلاء أثر هذه المعارف فى مختلف أغراض الشعر التى حواها الديوان . وتكشف عنه مباحث الدراسة .

تدينـــه ..

حين عرف العلماء الإيمان بأنه إقرار بالقلب ، وتصديق بالعمل فإنهم بذلك قد وضعوا قيوداً أمام كل من يحاول تصنيف الناس بين مؤمن، وكافر . لماذا ؟ لأن من يفعل ذلك لا يرى سوى زاوية واحدة من هذا المحكوم عليه . ألا وهى زاوية العمل ، أما الإقرار – فلما كان محله القلب – لا يعلمه إلا الله . ومن ثم حرص الإسلام على عدم توجيه الأحكام وبخاصة التى تجرد المسلم من إسلامه ، ما لم تكن صادقة يقينا وإلا فإن الحكم يرد على صاحبه ، قال ﷺ : ﴿ إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما ﴾ (١) .

وكم من أحكام أصدرها المسلمون ، معتمدين فيها على ظاهر الفعل، وخطَّأها ﷺ وانطلاقاً من ذلك فإن ما يصدر من الفرد ، ويراه الآخرون ، هو ما يمكن أن يُقَيَّم من خلاله ، حتى فى معتقده ، قال ﷺ :

---

(١) انظر صحيح البخارى : ٣٣٦٤/٥ باب من يرى إكفار من قال ذلك متاولاً أو جاهلا .

(إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) [1] . على أن هذا الحكم قد لا يكون صائباً فى كل الأحوال ، لأنه لا يعتمد فى التقييم على ظاهر الأمر وباطنه .

وكم من أحكام – وبخاصة فى الحياة الأدبية – تعوزها الدقة وتنقصها الأدلة ، لاسيما تلك التى تتناول أخلاقيات الشعراء ومعتقداتهم .

وحين أخص الشعراء ، فإننى لا أعنى سوى النابهين منهم المحلقين فى سماوات الإبداع ، الخارقين لعادات وتقاليد أزمانهم ، فأمثال هؤلاء قد خلَّفوا خلفهم عداوة لدى خاملى الشعراء وحاسديهم ، وأوجدوا هوة سحيقة بينهم وبين ناقديهم .

ولما كان هؤلاء الشعراء النابهون لا يمتلكون إلا فنهم سلاحاً يشهرونه فى الوجوه ، ولا تناله أيدى الحسدة والنقاد ، لجأ كثير من خصومهم إلى ميدان آخر ، بعدوا به عن الفن ، وركزوا على الفنان ، لا ليربطوا بينه وبين فنه ، ولا ليستخلصوا حياته من شعره ، إنما كان هدفهم التجريح ، والتشهير ، والكذب – فى الغالب – إضافة إلى حقد الحاقدين على شعراء الإسلام والمسلمين .

" وأبو تمام " واحد من أولئك الذين نالتهم الأقلام ، وسلقتهم الألسن، فمن قبل هو اليونانى ليس العربى الطائى ، وهنا هو المتحلل الماجن ، المعربد الفاسق ، المفرط فى الفرائض ، بل الملحد الكافر، وإن تسأل عن الأسباب والأدلة فلن تجد إلا ما يرويه الصولى (إن الحسن ابن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها ، يقول : (سمعت الحسن بن الحسن بن رجاء يحدث أبا سعيد الحسن بن الحسين

---

(١) رواه الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى – كتاب التفسير – باب من سورة التوبة . سنن الترمذى ٢٧٧/٥ رقم ٣٠٩٣ .

الأزدى ، أن أباه رأى أبا تمام يوماً يصلى صلاةً خفيفة فقال له : أتم يا أبا تمام ، فلما انصرف من صلاته قال له : قصر المال ، وطول الأمل ، ونقصان الجدة ، وزيادة الهمة ، يمنع من إتمام الصلاة ، لاسيما ونحن سفر) [1] .

وفى رواية المسعودى نقلاً عن محمد بن يزيد المبرد ، عن الحسن بن رجاء قال : (صار إلىَّ أبو تمام وأنا بفارس ، فأقام عندى مقاماً طويلاً، ونمى إلى من غير وجه أنه لا يصلى ، ووكلت به من يراعيه ، ويتفقده فى أوقات الصلاة ، فوجدت الأمر على ما اتصل إلى عنه ، فعاتبته على فعله ذلك ، فكان جوابه أن قال : أترانى أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام ، وأتجشم هذه الطرقات الشاقة ، وأكسل عن ركعات لا مئونة على فيها ، لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً ، أو على من تركها عقاباً ، قال : فهممت إليه لقتله ، ثم تخوفت أن يصرف الأمر إلى غير وجهته ، وهو القائل :

وأحــق الأنــام أن يقضــى الديــ ـــــن امرؤ كان للإله غريمــا

وهذا قول مباين لهذا الفعل) [2] .

والحقيقة إن هذه الملاحظة التى لاحظها ابن رجاء على أبى تمام لا تنفى عنه عقيدته الصحيحة ، أليس معنى كونه يصلى أنه مقر بالصلاة مؤد لها ، مؤمن بفارضها ؟!

---

(١) أخبار أبى تمام (أبو بكر محمد بن يحيى الصولى) ص ١٧٢ : تحقيق : خليل عساكر محمد عبده عزام ، نظير الإسلام الهندى . المكتب التجارى للطباعة والنشر – بيروت .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) ٧٢/٤ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد مطبعة السعادة ، ١٩٥٨ .

أما كون صلاته خفيفة فنحن نعلم أن أبا تمام كان دائم السفر ، لا يقربه قرار . ألا يترتب على ذلك أنه كان يقصر فى صلاته فيصليها خفيفة، مما يعكس فهمه للدين وأحكامه وأخذه برخصه التى رخصها الله للمسافر . ثم إن فى رد أبى تمام على ابن رجاء ما يدل على إيمانه بالفريضة ، وأخذه بالرخصة ، فما منعه من إتمام الصلاة سوى أنه على سفر .

أما رواية المسعودى فإنها تثير الكثير من الأسئلة ، ذلك أنها توحى أن أبا تمام ما ترك الصلاة تخفيفاً ، إنما لإيمانه أنه لا يثاب عليها فاعلها ، كما لا يعاقب تاركها ، وهو بذلك يكون قد أنكر فرضيتها . لكن هل ثبت على أبى تمام إنكاره للفرائض ؟

أكاد أجزم أن أبا تمام كان مقراً بالصلاة ، معترفاً بها ، مؤدياً لها ثم هل يعقل لمثله أن يتفوه بمثل هذا الكلام ، وهو الشاعر الذى اتخذ من ظهور العيس أوطاناً ، على حد قوله - يمدح الخلفاء والأمراء ويحرضهم على إعمال سيوفهم فى رقاب كل من تسول له نفسه الخروج عن تعاليم الإسلام ؟

كذلك مما يثير التساؤل قول ابن رجاء فى هذه الرواية : (فهممت إليه لقتله ، ثم تخوفت أن يصرف الأمر إلى غير جهته ، وهو القائل :

وأحــق الأنــام أن يقضــى الديــــن امرؤ كان للإله غريمــا

لقد هم ابن رجاء بقتل أبى تمام ، لما أظهر أمامه إنكار الصلاة ثم رجع لما تذكر بيته السابق . وحين نعود إلى البيت نجده من قصيدة مدح بها محمد بن سعيد لما عاد من الحج ومعناه : أن أحق الديون بالقضاء دين الله ، والحج دين الله على الناس ، لذا أداه الممدوح ، وفاء بالدين .

والسؤال :

هل وقف معنى هذا البيت دون تطبيق حد الله على أبى تمام لما أنكر الصلاة ؟

ثم ألم يكن معنى البيت حافزاً ، ودافعاً لابن رجاء على قتل أبى تمام ، إذا علمنا أن الصلاة كالحج دين الله على العباد ، وفريضة مفروضة عليهم ؟

إن هذه الرواية تحمل الكثير من التناقض ، ومما يرفضه العقل وتجعلنا نتقبل رواية ابن رجاء التى يرويها الصولى ، وخاصة أنها يرويها ابن رجاء بنفسه .

ويبدو أن رواية الحسن بن رجاء قد كانت الحجة الوحيدة ، التى استغلها من قال بخفة دين أبى تمام ، فالمعرى يقرر أن أبا تمام (ما أمسك من الدين بزمام) وحجته فى ذلك رواية ابن رجاء (والحكاية عن ابن رجاء مشهورة ، والمهجة بعيبها مبهورة) ، ومن هنا تأخذه الحسرة على هذا الشاعر العظيم (وإنى لأضن بتلك الأوصال ، أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفيض عنها المستغلق من المحار [1] .

والمتأمل فى هذا النص يلحظ أن المعرى لم يعلن عن رأيه صراحة فى تدين أبى تمام ، إنما هو يردد ما قاله ابن رجاء ، ثم يلحظ ثانية نعى المعرى للطائى ، وحسرته عليه ، إن هو دخل النار ، وذلك لأن المعرى كان معجباً بطريقة أبى تمام فى الفن الشعرى .

---

(١) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى . تحقيق د. عائشة عبدالرحمن : ٤١٩ . دار المعارف . القاهرة .

إن من يقرأ دفاع المعرى عن المتنبى يجده قد دفع عنه كل فرية وأوّل كل رزية ، ورد كل بلية ، ولا أدل على ذلك أنه قال : (حُدّثتُ أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه بصف رئى يصلى بموضع بمعرة النعمان يقال له : كنيسة الأعراب ، وأنه صلى ركعتين وذلك فى قت العصر – يلتمس المعرى العذر للمتنبى فيقول : فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر، وأن القصر له جائز) [١] .

وأليست هذه الرواية تشبه ما رواه ابن رجاء عن صلاة أبى تمام؟ وألا يلتمس العذر للشاعرين وقد كان كلاهما على سفر ؟ وأليس المعرى هو صاحب القول (نطق للسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان) [٢] .

إن الأمر كما يقول الصولى : " كيف يصح الكفر عند هؤلاء على رجل ، شعره كله يشهد بضد ما اتهموه به ، حتى يلعنوه فى المجالس ؟ ولو كان على حال الديانة لأغروا من الشعراء بلعن من هو صحيح الكفر، واضح الأمر ، ممن قتله الخلفاء بإقرار وبينة " [٣] .

ولعل موقف المعرى من الطائى يدفع إلى التساؤل : لماذا لم يدافع المعرى عن عقيدة أبى تمام كما دافع عن المتنبى ؟

أكان معتقداً فى صحة الخبر الذى أورده ابن رجاء ؟ أم أن الأمر غير ذلك ؟!

وذهب فريق آخر إلى ما هو أبعد من ذلك فراح ، يرميه بالكفر متخذاً من رواية أحمد ابن أبى طاهر حجة عليه ، حيث قال : " دخلت على أبى تمام وهو يعمل شعراً ، وبين يديه شعر أبى نواس ، ومسلم فقلت : ما

---

(١) السابق : ٤١٩ .
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى : ٤١٩ .
(٣) أخبار أبى تمام : ١٧٣ الصولى .

هذا ؟ قال : اللات والعزى ، وأنا أعبدهما من دون الله مذ ثلاثون سنة"[1] .

وفى رواية ابن المعتز " أما التى عن يمينى فاللات وأما التى عن يسارى فالعزى ، أعبدهما منذ عشرين سنة ، فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد ، صريع الغوانى ، وعن يساره شعر أبى نواس " [2] .

إن العجب أن يأخذ النقاد الكلام على ظهره ، فمتى كان كلام الشعراء فى مثل هذه المواقف تعبيراً صادقاً ، وإقراراً منهم يدل على عقائدهم التى يدينون بها ؟!

ألا يدل هذا القول على شدة إعجاب أبى تمام بالديوانين ، وإن كان قد أساء التعبير عن هذا الإعجاب ؟! وألا يكون قد قصد أنهما شغلاه عن عبادة الله . ؟

إضافة إلى أن الخبر الذى أورده ابن المعتز قد خلا من قوله : أعبدهما من دون الله ، ورواية ابن المعتز أقوى من رواية الصولى ذلك (أن المؤلف – ابن المعتز – ينقل عن راوى الخبر الأول مباشرة بينما ينقل الصولى الخبر عن جماعة لم يحددهم ، رووه عن " أحمد بن طيفور " وهو الذى يصفه الصولى بأنه " صحفى حاطب ليل [3] .

ثم هل يقف هذا الدليل وحده أمام كل التصرفات الدينية ، التى يمارسها أبو تمام فينفى عنه إيمانه بالله ؟

إن المطلع على حياة الرجل يجده إنساناً مؤمناً ، فهو مقر بالوحدانية معترف بالله ، وملائكته وكتبه ، ورسله ، مؤمن باليوم الآخر، وبالقضاء

---

(١) السابق ١٧٣ .

(٢) طبقات الشعراء المحدثين (لابن المعتز) تحقيق عبدالستار أحمد فراج : ٢٨٣ دار المعارف القاهرة .

(٣) أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا. د/ عبدالله بن حمد المحارب : ٢٢٣ مكتبة الخانجى .

والقدر ، والحساب والعقاب والجنة ، والنار ، ثم هو مؤد لفرائض الله ، التى افترضها : من صلاة ، وصيام وحج ، كما دل على كل ذلك شعره .

وهو بعد ذلك إنسان غير معصوم ، قد يصيب ، وقد يخطئ ، فإذا ما أخطأ ثاب إلى نفسه ، فحاسبها وزجرها ، ولجأ إلى ربه ، يرجو رحمته، ويخاف عقابه ، فيقول : (١)

أخـــــاف إلهـــى ثـــم أرجـــــــو ولكن خـــــوفى قـــــاهر لرجائيـــا
نوالـــــه ولولا رجـــائى واتكالى على توحـــد لى بالصنع كهلا وناشيا ولا
الذى لما ساغ لى عذب من الماء بـــارد طاب لى عـــيش ولا زلـــت باكيـــا

وإذا ما تركنا آراء الناس فى عقيدة أبى تمام ، وتصفحنا ديوانه لشعرى ، وجدنا أنفسنا أمام شاعر ، يبهرنا بثقافته الإسلامية الواسعة وغيرته الشديدة على الإسلام ، والمسلمين ، ومنافحته أهل الشرك والبهتان، حتى إنك لتجد أجمل قصائده تلك التى يتغنى فيها بانتصارات المسلمين على الرومان ويشيد فيها بخلافة الإسلام .

وهذا ما سيجليه البحث فى مباحثه المختلفة ، إن شاء الله تعالى .

تشيعـــه :

من القضايا التى تتعلق بالجانب العقدى لدى أبى تمام قضية تشيعه، فقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بتشيعه ، ففى كتاب " رجال النجاشى " لأبى العباس أحمد بن على النجاشى (٣٧٢ - ٤٥٠هـــ) . يذكر أن ابا تمام (كان إمامياً ، وله شعر فى أهل البيت) (٢) .

---

(١) الديوان : ٤٦٣/٢ .
(٢) رجال النجاشى . أبو العباس أحمد بن على النجاشى . بيروت .

كذلك ذكر العاملى فى كتابه " أمل الآمل فى علماء جبل عامل " قوله (كان شيعياً فاضلاً) [١] .

ويرى صاحب كتاب أعيان الشيعة " (أن أبا تمام أظهر تشيعه لآل البيت بمدحه لهم فى العديد من قصائده ومن ذلك قصيدته الدالية ، التى مدح بها المأمون) [٢] .

واللافت للنظر أن القول بتشيع أبى تمام ، إنما جاء على ألسنة رجال الشيعة . أما غير هؤلاء فلم يروا أثراً للتشيع عند أبى تمام .

فالتبريزى يرى أنه غير متشيع ، وأن ما جاء موهماً للتشيع فى شعره إنما هو ضرب من التقرب للمأمون ، ويعلق على قوله :

ووسيلتى فيها إليك طريفة شام يدين بحب آل محمد
نيطت قلائد عزمه بمحبر متكوف ، متدمشق ، متبغدد

يقول التبريزى : أراد أن يمت إلى المأمون بأنه شيعى ، لأن المأمون أظهر التشيع فى أول أمره وهذا يعنى أنه لم يكن يعتقد الشيعة إنما كان ذلك منه تزلفا للمأمون ، فهو وإن كان شاميا إلا أنه يخالف الشاميين فى حب آل البيت ، ثم يتخذ التبريزى من قول أبى تمام .

حتى لقد ظن الغواة وباطل أن قد تجسم فىَّ روح السيد

دليلا على نفى تشيعه (فهو مقر بحب آل البيت ، غير معتقد فيما يعتقد فيه الشيعة ، من انتقال روح السيد بن محمد الشاعر إلى جسمه كذلك اتخذ من قوله :

---

(١) أمل الآمل فى علماء جبل عامل " العاملى " تحقيق : حسن الأمين ، الطبعة الثانية ، مطبعة الإنصاف ١٩٦٠م .
(٢) أعيان الشيعة . السيد محسن الأمين ٦ / ١٥٨ / .

ولو صح قول الجعفرية فـــى الـــذى تنص من الإلهام خلنـــاك ملهمـــا

دليلاً آخر على اعتقاد أبى تمام خطأ الشيعة [1] .

ويؤيد الدكتور / شوقى ضيف ما ذهب إليه التبريزى ، من نفى نسبة التشيع عن أبى تمام ، ويقول : (فى ديوانه رائية يمدح بها أهل البيت، وفيها يفضل علياً ، ويشيد بمواقفه فى عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظنا أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق بتفضيل " " على بن أبى طالب " على " أبى بكر " و " عمر " رضى الله عنهم ، وكان حينئذ بمصر ، وفى القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول :

وأن نكيـــراً أن يضـــيق بمـــن لـــه عشيرة مثلى أو وســـيلته مصـــر

ونراه فى أول قصيدة لقى فيها المأمون يصرح له فيها ، بأنه مشغوف بحب آل محمد تقربا إليه وزلفى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثاً عن قصيدته التى مدح بها المأمون :

ووســـيلتى فيهـــــــا إلـــــيك شـــــام يـــدين بحـــب آل محمـــد

طريفـــــة نيطت قلائد عزمه بمحبر متكـــوف ، متدمشـــق ، متبغـــدد

ويخلص الدكتور/ ضيف إلى القول : إن تشيعه فى القصيدتين إنما كان فى سبيل المأمون يحاول أن يمت إليه بما يعطفه عليه) [2] .

---

(١) انظر ديوان أبى تمام شرح التبريزى : ٢٦٢/١ .

(٢) انظر : العصر العباسى الأول د/ شوقى ضيف ص ١٢١ وما بعدها .

ذلكم أبو تمام بنسبه ، وثقافته ، وتدينه ، وتشيعه . مثله كمثل أى إنسان ، تغريه الحياة ، فيركن إليها ، وتوقظه العقيدة ، فيثوب إليها وليس فى ديوانه ما يثبت أنه كان ماجنا ، أو زنديقا*، لكنه يلهو ، ولكن بقسطاس، وكأن خصومه حاولوا أن يغضوا منه ، فزيَّفوا عليه الخبر السابق – خبر ابن رجاء – طعناً عليه ، ومحاولة للنقص منه .

ثم هو رجل محب لآل البيت ، حب لا يفرضه مذهب ، ولا يمليه تشيع ، حب شأنه الغيرة على المحبوب ، والدفاع عنه ، والتضحية من أجله . مما قد يوهم البعض أنه شيعى الهوى ، وهو من ذلك برىء .

* فى ديوان الشاعر بعض القصائد فى وصف الغلمان والشراب (وقد يسوق الظن إلى أن أبا تمام كان من أصحاب الغلمان . ولكن هذا ما لا تدل عليه حياة أبى تمام ، ولا شعره ، وإن ما فيه من ذلك قريب من أن يكون من باب طرق فنون شعرية طرقها معاصروه ، فعز عليه ألا يقول فيها) { حياة أبى تمام وحياة شعره د. البهبيتى ص ٤١ } .

الباب الأول

أثر الإسلام فى مضمن شعر أبى تمام

الفصل الأول

أثر الإسلام فى المعانى والأفكار

من يستقرئ ديوان أبى تمام بحثاً عن أثر الإسلام فى شعره ، فإنه ليس بحاجة إلى تعسف البحث عن مجرد ألفاظ ذات صلة بالمصطلحات الإسلامية : كالإيمان ، والإسلام ، والصلاة ، والزكاة والحج ، والجنة والنار . أو كأسماء الأنبياء ، وصفاتهم ، ليثبت من خلال ذلك تدينه ومعرفته بتعليم الإسلام . ذلك أنه بث كل تعاليم الإسلام ، وقيمه فى شتى أبواب ديوانه . فى مدحه ، وهجائه ، وغزله ، ورثائه ، وفخره واستعطافه . ومن ثم آثرت استجلاء أثر الإسلام من خلال موضوعات شعره ، لأقف على ما انعكس عليها فى معانيها وأفكارها .

أثر الإسلام فى معانى شعر المديح وأفكاره

منذ العصر الجاهلى عرف الشعراء قدر ممدوحيهم ، فخلعوا عليهم من الصفات الخلقية ما رفع شأنهم ، وأعلى قدرهم ، وحفظ ذكرهم، فهم أهل الشجاعة والكرم ، والعفة والشرف والحلم والحزم وحماية الجار ، ونصرة المظلوم .

ولما أشرق فجر الإسلام ، واءم الشعراء بين مدائحهم وواقعهم الجديد ، فإذا بالمثالية الدينية ذكر يضىء صفحة الممدوح ، فهو إلى جانب ما تمتع به من صفات خلقية ، رجل تقوى وبر ، وذكر وشكر ، وإذا كان

من أولى الأمر فهو الحاكم بالشرع ، القائم بالعدل ، العارف بالحدود الراعى للرعية ، وإذا كان مقاتلا ضد أعداء الدين أشادوا ببطولته ، وجهاده فى سبيل الله .

وهكذا عزف الشعراء على قيثارة الخلق والدين أروع ألحانهم وأشهر مدائحهم . وما أبو تمام إلا واحد ممن شغف بالإشادة بالجانب الدينى فى ممدوحيه .

ففى مجال حديثه عن " الخلافة " يجعلها أمراً مشروعاً للخليفة لم يتبوأها غصباً ، أو يرتقيها قهراً ، إنما هى إرادة الله له وللرعية . يقول فى مشروعية خلافة الواثق [1] :

جعل الخلافة فيه رب قوله سبحانه للشىء كن فيكون

إذن لم يكن الواثق ممن سعى إلى الخلافة ، ولا قاتل من أجلها إنما هو قدر الله للعباد ، وإذا أراد الله شيئاً أنفذه { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (البقرة : ١١٧) ومن ثم فشتان بين خليفة اختاره الله ، وخليفة خلَّف نفسه .

ولما كان الوصول إلى الخلافة وصولاً شرعياً ، بايع المسلمون الواثق ، واستبشروا بخلافته ، وفى ذلك يقول :

لما دعوتهُمُ لأخذ عهودهم طار السرور بمُعْرِقٍ وشَآم
فكأن هذا قادمٌ من غيبة وكأن ذاك مبشَّر بغلام
لو يقدرون مَشَوا على وجَناتهم وعيونِهم فضلا عن الأقدام
هى بيعة الرضوان يشرع وسطها باب السلامة فادخلوا بسلام

(١) الديوان ٢ / ١٦٥ .

لقد أحيط الخليفة بمظاهرة يقودها المحبون والمؤيدون للخليفة : من العراقيين والشاميين ، وهم إذ يجتمعون ، ويلتقون لدى الخليفة لا يهنئون الخليفة فحسب ، إنما يهنئ بعضهم بعضاً بالخليفة ، وتبلغ الفرحة بالخليفة ذروتها ، حين جعل الشاعر فرحة الناس به كفرحة الغائب ، وغبطة من بشر بغلام ، وما أشبه مبايعة هؤلاء للخليفة ببيعة الرضوان الخالدة ، وهكذا لم تكن مشروعية الخلافة مستمدة من الناس فحسب ، إنما هى قبل ذلك إرادة الله وقدره .

ولما سلمت الخلافة ، تغنى أبو تمام بصفات ممدوحيه – وبخاصة الدينية – حتى يمكن القول إن ما أسبغه على ممدوحيه من صفات دينية فى معناها العام يفوق ما وصفهم به ، من صفات خلقية ودنيوية . يمدح أفعال المعتصم فيقول [1] :

تـــدبير معتصـــــم بـــــالله منـــتقم لله مرتقـــب فـــى الله مرتغـــب

إن أفعال أمير المؤمنين كلها لله ، وبالله ، فهو يستمد من الله قوته التى يجابه بها أعداءه ، وينتقم منهم (بالله منتقم) وهو يرقب الله ويخافه فى أفعاله (لله مرتقب) ثم هو يفعل ذلك رغبة فيما يقربه من الله تعالى (فى الله مرتغب) من أجل ذلك كله كان تدبير المعتصم من تدبير الله له .

وفى الخليفة الواثق يقول [2] :

هـــارون يـــا خيـــر مـــن يُرجَّـــى لـــم يطـــع اللهَ مـــن عصـــاك
لـــو كـــان بعـــد النبـــى وحـــى إلـــى ولـــىٍّ لكنـــت ذاكـــا

---

(١) الديوان : ٤١/١ .
(٢) الديوان : ٩٥/١ .

لقد نظر أبو تمام إلى معنى قول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } (النساء : ٥٩) فرتب على ذلك ، أنه من لم يطع الخليفة ما كان طائعا لله ، وهذه الطاعة ليست لمجرد أنه خليفة ، وإنما لكونه يستحق أن يكون خليفة مطاعاً ، ولعل قوله :

لـــو كـــان بعـــد النبـــى وحـــى إلـــى ولـــى لكنـــت ذاكـــا

يكشف عن القيم الدينية ، التى يتحلى بها هارون الرشيد ، والتى رفعته إلى مرتبة الأولياء فاستحق الطاعة ، لما كان مطيعاً لربه .

ومن هذا القبيل قوله يمدح " محمد بن يوسف الثقفى [١] :

وعَـــزَ الدين بالجـــلاد ولكـــــن وعورَ العدوِّ صارت ســـهوبا
ودروب الإشراك صـــارت فضـــاءً وفضاءُ الإســـلام يُـــدعى دروبـــا

لقد علم الممدوح أن الدين لا يتم إلا بالجهاد ، والجهاد أمر تكرهه النفوس ، لما فيه من مخاطر ، قد تؤدى إلى القتل ، وهو مع ذلك جعله أمراً لا يمكن الانفكاك عنه ، واستجاب له المسلمون ، فصارت ديار المشركين سهلة المنال ، رحبة أمام المسلمين ، عكس ديار المسلمين التى أصبحت فى نظر المشركين دروبا ، لا يمكن دخولها .

وتتعدد المعانى الإسلامية فى الممدوحين ، ويلتقط الشاعر لكرم الممدوح لقطة فريدة قال فيها [٢] :

---

(١) السابق ١/١٢٤ .
(٢) الديوان ١ / ١٤٧ .

جديرٌ بأن يستحِي اللهَ باديـاً به ثم يستحى النَّدى ويراقبه

لقد جرت عادة الشعراء حين يمدحون بالكرم المبالغة فى وصف أفعال الممدوح ، ووصف ما جاد به وبذله ، لكن أبا تمام يعمد هنا إلى ذكر علة البذل ، فيجعلها الحياء من الله أولا ، ثم حرص الممدوح على إرضاء ربه ، ورغبته فى كسب محبة الناس ، ولا شك أن ذلك أمر حث عليه الإسلام وحببه .

ومن المعانى الإسلامية التى تغنى بها أبو تمام فى ممدوحيه اتصال نسبهم بآل البيت ، يقول فى محمد بن عبدالملك بن صالح الهاشمى[1] :

رهطِ الرسول الذى تقطَّعُ أسبا بُ البرايا غداً سوى سببه
مُهذَّب قُدَّت النبوةُ والإسلا مُ قَدَّ الشِّراك من نسبه

لقد نظر أبو تمام فى مدحه ابن صالح إلى معنى الحديث النبوى : " كل سبب ونسب يتقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى " [2] صدق رسول الله ﷺ . ومن ثم آثر مدح ممدوحه بما يرفع ذكره ، ويعلى قدره ، فهو من سلالة طيبة ، ونسب عريق ، وكفاه فخراً أن النبوة قد قدت من نسبه كما تقد السيور من الأديم .

ومن المعانى والأفكار الدينية التى استمدها أبو تمام فى رسم لوحات مدائحه معانى " الأحكام الشرعية " ذلك أنه سخر دلالة بعض

---

(١) السابق ٢ / ٤٧ .
(٢) سنن البيهقى ٦٣/٧ . حديث رقم ١٣١٧١ . كتاب النكاح . باب الأنساب كلها منقطعة يوم القيامة نسبه (ص) .
تحقيق : محمد عبدالقادر القطار . نشر مكتبة دار الباز مكة المكرمة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

الأحكام الفقهية ، والشرعية لخدمة موضوع مدحه ، فهو حين يريد التدليل على بيان منزلة الممدوح عنده يجعل زيارته له فرضاً لا يمكن تركه ، فى حين أن زيارته لكل من عداه من الناس لا تتجاوز النافلة . يقول [1] :

فـــوالله لا آتيـــك إلا فريضـــة وآتـــى جميـــع النـــاس إلا تـــنفلا

ولعل هذا المعنى يرمز إلى عفاف أبى تمام وترفعه ، فهو لا يذهب إلى أحد سوى ممدوحه . ولعله يرمز أيضا إلى كرم الممدوح مما جعل الشاعر لا يتردد فى الذهاب إليه ، كما لا يتردد المسلم فى أداء الفرائض ..

وفى لوحة أخرى يمدح فيها المعتصم ، وقد قتل "بابك الخرمى" لزندقته ، يقول فيها [2] :

أعطـــى أميـــر المـــؤمنين ســـيوفه فيه الرضـــا وحكومـــة المقتـــال
مســـتيقناً أن ســـوف يمحـــو قتلـــه ما كان من ســـهو ومـــن إغفـــال
مثل الصـــلاة إذا أقيمـــت أصـــلحت ما قبلهـــا مـــن ســـائر الأعمـــال

لقد أمر المعتصم بقتل بابك ، لما خرج عن الملة ، وأضمر للمسلمين العداوة ، ودبر لهم المكائد ويجعل الشاعر مقتل بابك تكفيراً للمعتصم ، عن سهوه وإغفاله عن بابك ، ويؤكد الشاعر هذا المعنى – مقتل بابك يغفر خطأ المعتصم وسهوه – وذلك باللجوء إلى حكم شرعى، له الدلالة نفسها ألا وهو الصلاة ، ذلك أن المسلم إذا صلى وصلحت صلاته ، محت ما كان قبلها من الأعمال الفاسدة .

---

(١) الديوان ٢ / ٤٩ .
(٢) السابق ٢ / ٦٣ .

وقد لا يرى أبو تمام حرجاً فى الإلحاح والطلب ، تأكيداً لبيان حالته وحاجته ، يشفع له ذلك الإقتداء بحكم الأذان الثانى ، إذ لو لم تكن له فائدة ما شرع بعد الأذان الأول . يقول (١) :

لستُ أُدلِى بحرمةٍ مستزيداً ... فى وداد منكمُ ولاَ فِى نصيب
غير أن العليلَ ليس بِمذمو ... مٍ على شرح ما به للطبيب
لو رأينا التوكيد خُطة عجزِ ... ما شفعنا الأذان بالتثويب

وقد تجتمع فى الممدوح العديد من القيم والمثل الإسلامية ، وهنا يجد الشاعر الفرصة للعزف على كل هذه المثل ، يقف أمام الخليفة المعتصم شادياً (٢) .

رواحلنا قد بزَّنا الهمُّ أمرَها ... إلى أن حسبنا أنهن رواحله
إلى قُطُب الدنيا الذى لو بفضله ... مَدحْتُ بنى الدنيا كفتْهم فضائله
جلا ظُلُمات الظُّلم عن وجْه أُمَّة ... أضاءَ لها من كوكب الحق آفله
ولاذت بحِقْوَيْهِ الخلافةُ والتقت ... على خدرها أرماحُه ومناصله
بمعتصمٍ باللهُ قد عُصِمت به ... عُرى الدين والتفَّت عليها وسائله
رعى الله فيه للرعية رأفةً ... تزايله الدنيا وليست تزايله
فأضحَواْ وقد فاضت إليه قلوبُهم ... ورحمتُه فيهم تفيض نائله
وقام فقام العدلُ فى كل بلدة ... خطيباً وأضحى الملك قد شقَّ بازله
وجرَّد سيفَ الحق حتى كأنه ... من السَّلِّ مُودٍ غمدُه وحمائله

لقد وجَّه الشاعر العيس نحو ممدوحه ، الذى لو مدح البشرية جميعها بخصاله الكريمة لكفتهم ، فهو الذى تبيت الفضائل عيالاً على

---

(١) السابق ١ / ٧٦ .
(٢) الديوان ٢ / ١٤ .

شمائله ، وهو الزائد عن حياض الإسلام ، المدافع عن المسلمين الحافظ لعرى الدين ، ومن ثم باتت الخلافة عنده آمنة مطمئنة ، ونعمت الرعية بالرعاية ، وانتشر العدل فى كل مكان ، ولم يعد يخشى على الخلافة ، لما تحصنت بالله والرعية .

لا شك أنها انشودة دينية رائعة ، تعكس ولوع الشاعر بالتغنى بمثل تلك القيم الخالدة ، والتى لولا توافرها فى ممدوحه ما جاءت على هذا النسق الفنى البديع .

ومن المعانى الدينية التى أشاد بها أبو تمام فى ممدوحيه أداؤهم الفروض الشرعية من ذلك أنه لما خرج " أبو سعيد محمد بن يوسف " من عمورية متوجهاً إلى مكة ، مدحه بقصيدة قال فيها [1] :

حُطِّت إلى عمدة الإسلام أرحله ... والشمس قد نفضت ورسا على الأصل
ملبياً طالما لبَّى مناديه ... إلى الوغَى غير رعيد ولا وكِل
ومُحرِماً أحرمت أرضُ العراق له ... من الندى واكتست ثوباً من البخل
وسافكاً لدماءِ البُدن قد سُفِكت ... به دماءُ ذوِى الإلحاد والنحل
ورامياً جمرات الحج فى سنة ... رمَى بها جمرات اليوم ذى الشعل
يُردِى ويُرقِل نحو المروتين كما ... يُردى ويُرقِل نحو الفارس البطل
تُقبِّل الرُّكنَ رَكنَ البيت نافلةً ... وظهُر كفك معمورٍ من القبل
لما تركتَ بيوتَ الكفر خاويةً ... بالغزو آثرتَ بيتَ الله بالقَفَل
والحجُّ والغزو مقرونان فى قَرنٍ ... فاذهب فأنت زُعاف الخيل والإبل

إن المتأمل فى معانى هذه الأبيات ، يجد الشاعر وقد غلفها بغلاف من الإشادة بالممدوح ، الذى جمع بين عظيم الأفعال الدينية والدنيوية ، فهو

---

(١) الديوان ٢ / ٤٤ .

يتوجه إلى مكة محرماً ملبيا ، سافكا للبدن ، رامياً للجمرات ، ساعياً بين الصفا والمروة ، مقبلا للركن ، وهو قبل ذلك كله قد أسال دماء الكفرة الملحدين ، ورماهم فى عمورية بشعل من النار هدمت أركانهم ، وسعى إليهم سعى البطل .

وهكذا ربط الشاعر بين معانى مناسك الحج ، وبين ما يقوم به الممدوح ، من أفعال فى شئون الحياة ، وكأنه بذلك يضفى على كل افعاله أنواراً من تعاليم الإسلام ، ولا أدل على ذلك من قوله :

والحج والغزو مقرونان فـــى قـــرن فاذهب فأنت زعـــاف الخيـــل والإبـــل

وفى مشهد آخر ، يجعل الشاعرُ الحجَّ دَيْناً فى ذمة الممدوح ومن ثم توجه إلى مكة لقضائه . يقول [1] :

وجَّه العيس وهى عيس إلى اللـــــ ـــــه فآلـت مثـل القسـيِّ حطيمـا
وأحقُّ الأقـــوام أن يقضـــى الديـــ ـــن امـــرؤٌ كـــان للإلـــه غريمـا
لـــم يُحـــدِّث نفسَـــه بمكـــة حتـــى جـــازتِ الكهـــفَ خيلُـــه والرقيمـــا
حَـــرمُ الـــدين زاره بعـــد أن لـــم يُبـــقِ للكفـــر والضـــلال حريمـــا

لعل اللافت للنظر فى هذه الأبيات ، والتى سبقتها ، أن أبا تمام حين مدح ممدوحه بالمعانى الدينية المعبرة عن الفروض الشرعية والمتمثلة فى فريضة الحج ، قد جعل الغزو مفضلاً ، ومقدماً عليها من قبل الممدوح ، فالممدوح هنا لم يحدث نفسه بالحج ، إلا بعد أن فرغ من الجهاد ، وفتح بلاد الروم وفى ذلك ما يدل على أن عناية الخليفة بأمر المسلمين مقدمة على العناية بنفسه ، وفى ذلك تحقيق لأمر النبى ﷺ .

---

(١) الديوان ٢ / ١١٢ .

ومن المعانى التى تأثر فيها أبو تمام بالمثل الإسلامية ، مدح الخلفاء والأمراء بـ " مثالية الحكم " وقد حظى الخليفة المأمون بأروع ما غرد به أبو تمام ، فى تصوير هذا الجانب . يقول [1] :

الله أكبر جاءِ أكبر من جرت ... فتحيَّرت فى كُنهه الأوهام
من لا يحيط الواصفون بقدره ... حتى يقولوا قدرُه إلهام
من شرَّد الإعدامَ عن أوطانه ... بالبذل حتى استُطرِف الإعدام
وتكفَّل الأيتامَ عن آبائهم ... حتى وَدِدْنا أننا أيتام
مُستسْلمُ لله سَائِسُ أُمَّة ... لذوى تَجَهْضُمِهَا له استسلام
يتجنَّب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناته آثام
يا أيها الملك الهمام وعدله ... ملك عليه فى القضاء همام
ما زال حكم الله يشرق وجهه ... فى الأرض مذ نيطت بك الأحكام

لقد رسم أبو تمام فى هذه الأبيات ، الصورة المثالية للخليفة المسلم، وقد انطلقت الصورة ، ترسم هيئة الخليفة وهيبته ، فإذا بالحيرة والعجز يصيبان الشاعر ، إذ كيف له ذلك ، وهو أمام رجل ، حارت البرية فى وصفه ، وإدراك كنهه . ومن ثم لا يمتلك سوى التكبير (الله أكبر) .

لكن ما الذى سمى بالخليفة إلى هذه الدرجة ، وبوأه تلك المنزلة ؟

تجيبنا أبيات الشاعر فى زهو : لقد كان المأمون مثالياً فى الحكم راعياً لرعيته . فهو (من شرد الإعدام عن أوطانه بالبذل) وقيام الخليفة بذلك مطلب شرعى ، ولعل قوله (عن أوطانه) يفيد عموم النفع لكل الرعية فى مختلف أرجاء الخلافة ، فالرعاية والبذل ليسا قصراً على أهل حاضرة الخلافة كما تعود الناس إلى وقتنا هذا ، كذلك فى إسناد الأوطان

---

(١) الديوان ١ / ٥٧ .

إلى الخليفة (أوطانه) ما يعكس شدة الحرص على أمر الرعية . وهو (من تكفل الأيتام عن آبائهم) بالعطف والرعاية ، وحقيق لمثل هذا الخليفة أن يمتدح ، فقد جرت عادة الحكام رعاية المقربين إليهم، من ذوى الجاه والسلطان ، أما أمثال هذه الفئة من المجتمع فغالباً لا تنال أدنى رعاية ، إلا من خليفة مسلم ، يخشى الله ، ويحرص على إقامة العدل ، ثم هو (مستسلم لله) أى أنه قد سلم أمره لله ، فوجده حيث أمره ، وافتقده حيث نهاه ، ومن ثم أيده الله بتوفيقه ، ووهبه المهابة حتى خضع لسلطانه المتجبرون .

إن حرص الخليفة على حسن القيام على أمر رعيته ، وخوفه من مخالفة أمر به ، جعله حريصاً كل الحرص على تجنب الآثام ، والخوف من الوقوع فيها . (يتجنب الآثام ثم يخافها)

وفى ختام اللوحة يرتفع صوت أبى تمام ، ليُسمِعَ الخليفة أعظم ما ينبغى أن يُمْدَح به خليفة :

يـا أيهـا الملـك الهمـام وعدلـه ملـك عليـه فـى القضـاء همـام
ما زال حكـم الله يشـرق وجهـه فى الأرض مذ نيطـت بـك الأحكـام

لقد نشر المأمون العدل ، وأقامه فى مختلف أرجاء الخلافة ، ومن شدة حرصه عليه فكأنما تجسد له عدله قاضياً يحكم عليه ، ويراقبه . ولما كان الأمر كذلك أشرق حكم الله فى الأرض منذ أن تولى .

وهكذا جمع الشاعر فى هذه اللوحة كل ما من شأنه تحقيق مثالية الحكم للحاكم ، وقد كان المأمون الخليفة المثال ، الذى توافرت فيه هذه المثالية .

ولم يكن الخلفاء وحدهم الذين استأثروا بهذه المثالية ، فقد تزيا بها القضاة ، والأمراء ، من إحدى قصائده فى مدح " حبيش بن المعافى " قاضى نصيبين ورأس عين يقول [1] :

ومجهولة الأعلام طامسة الصوى ... إذا اعتسفتها العيس بالركب ضلت
تعسَّفتُها والليل مَلق جِرانَه ... وجوزاؤه فى الأفق حين استقلت
إلى خير من ساس الرعية عدله ... ووطَّد أعلامَ الهدى فاستقرت
حبيش حبيش بن المعافى الذى به ... أُمرَّت حبال الدين حتى استقرت
أقر عمود الدين فى مستقره ... وقد نهلت منه الليالى وعلت
ونادى المعالى فاستجابت نداءه ... ولو غيره نادى المعالى ولُصَّمت
ونيطت بحِقْوَيْهِ الأمورُ فأصبحت ... بظل جناحيه الأمور استظلت
وأحيا سبيل العدل بعد دثوره ... وأنهج سُبل الجود حين تعفت
ويلوى لأحداث الزمان انتقامه ... إذا ما خطوب الدهر بالناس ألوت
ويجزيك بالحسنى إذا كنت محسناً ... ويغتفر العظمى إذا النعل زلت
يلم اختلال المعتفين بجوده ... إذا ما مُلِمَّات الأمور ألمت
همامٌ وَرِىُّ الزند مُستَحصِدُ القوى ... إذامـا الأمورُ المشكلات أظلت
إذا ظلمات الرأى أُسدل ثوبُها ... تطلَّع فيها فجرُه فتجلت
به انكشفت عنا الغياية وانفرت ... جلابيبُ جور عمنا فاضمحلت

لقد استقصى أبو تمام فى ممدوحه كل فعاله ، ورصد معظم تصرفاته ، ومن ثم جاءت صورة القاضى واضحة جلية ، تكشف عن علاقته بالله وبالناس .

وجه أبو تمام ناقته ، التى قطع بها تلك المفازة المجهولة ، قاصداً خير من ساس الرعية بعدله ، وثبت أركان الدين بجهاده وجهده ، إلى "

---

(١) الديوان : ١ / ١٦١ .

معافى بن الحبيش " ، الذى جعل الدين فى مستقره من النفوس والمكانة ، والذى طلب العلا فاستجاب له ، والذى استظلت فى كنفه أمور الدين والدنيا معا .

والذى أحيا العدل بين الناس بعد دثوره ، وهو من ينتصر على مصائب الدهر ، ويقيل الناس من عثراته ، ولما كان هذا القاضى ينشد العدل ، فإنه يجزى بالحسنى إذا كنت محسناً ، ويغتفر الزلات ما لم تكن متعمداً ، واستجابة للدور المنوط به ، فإنه لا يبالى إذا ما أنفق ماله فى سبيل الوقوف مع الحق ، وإذا ما المصائب بالناس نزلت .

وقد تكون المثالية غاية ينشدها الشاعر ، وهنا يلجأ إلى المواقف الإسلامية ، يحفز بها الممدوح ، ويدعوه للإقتداء بها ، من ذلك ما نجده فى حديثه إلى " مالك بن طوق " حيث يقول [1] :

فَأَقِلْ أُسامةَ جُرمَهـا واصـفح لهـا ... عنـه وهَـبَ مـا كـان للوهـاب
أسبل عليهم سـتَر عفـوك مفضـلا ... وانفـحْ لهـم مـن نائـل بـذناب
لك فى رسـول الله أعظـمُ أسـوة ... وأجلّهـا فـى سُـنّة وكتـاب
أعطى المؤلفـة القلـوب رضـاهم ... كرمـا ، وردَّ أخايـذ الأحـزاب

لقد خرج حى من العرب يسمى " أسامة " على الوالى " مالك بن طوق " أظهروا عصيانهم ، وعدم طاعتهم ، فما كان من الوالى إلا أن طردهم ، فلما أحسوا خطيئتهم ، أعلنوا التوبة والاعتذار ، بعد أن تشفع لهم أبو تمام لدى الوالى ، وكان هؤلاء قليلى الخبرة بالأمور ، ذوى غفلة وحداثة سن ، وأراد أبو تمام أن يستل ما فى نفس الممدوح من أمر تجاه هؤلاء ، فراح يمدحه بما يعطفه عليهم .

---

(١) الديوان : ١ / ٥٥ .

وقد كانت مثالية النبى ﷺ فى معالجة مثل هذه الأمور وسيلة الشاعر التى نفذ منها إلى قلب الممدوح فبعد أن خاطبه بقوله : أقل أسامة .. هب لهم ، أسبل عليهم ، انفح لهم ، يقول له : إنك إن فعلت ذلك تكن قد تأسيت بموقف النبى ﷺ ، من الذين دخلوا الإسلام رغبة فى الغنائم والعطاء (المؤلفة قلوبهم) إذ أعطاهم فوق ما يستحقون كرماً منه، واستمالة لقلوبهم ، فى حين ردَّ أعداء الإسلام من الأحزاب ، ومن ثم فإن لك فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى الإقتداء به ، فلتعف عنهم ولتصفح زلاتهم .

ويأتى حديث الحرب فى شعر المدح عند أبى تمام ، يحمل كل القيم الإسلامية ، والمعانى السامية والروح المثالية ، فحروب الخلفاء والأمراء ليست لحمية ، أو عصبية ، أو لأخذ ثأر ، أو طلب مغنم ، إنما هى دفاع عن العقيدة ، وذَبٌّ عند الشريعة ، وحماية للأوطان ، ورَدٌّ على الطغاة ، فهى إذن قتال لله ، وفى الله استجابة لقوله تعالى : **{ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ }** (البقرة : ١٩٠)

من إحدى قصائده يشيد بدور الخليفة المأمون فى الدفاع عن الدين، فيقول [١] :

لما رأيت الدينَ يخفقُ قلبُه ... والكُفر فيه تغطرس وعرام
أوريتَ زَند عزائم تحت الدّجى ... أسرجْن فكرك والبلاد ظلام
فنهضت تسحب ذيلَ جيش ساقه ... حسنُ اليقين وقاده الإقدام
حتى نفضت الروم منك بوقعة ... شنعاء ليس لنقضها إبرام

---

(١) الديوان : ٢ / ٧٤ .

على عادة أبى تمام فى اللجوء إلى أسلوب المقابلة ، باعتباره وسيلة لتوضيح المعنى الذى يريده ، يصور حال المسلمين بأرض الروم فإذا هم قلوب خافقة ، وأبدان مرتعدة ، نتيجة البطش من أهل الكفر الذين تغطرسوا، وتجبروا ، وامتهنوا شأن المسلمين هناك ، ومن ثم اتخذ الخليفة قراره ، وبيَّت رأيه لدرء الأذى عن المسلمين ، فكانت تلك الموقعة ، التى لم تبق للروم بعد ذلك قائمة .

وشبيه بتلك الصورة قوله يمدح وإلى خراسان ، وقد غزاهم دفاعاً عن الدين [1] :

وأنت وقد مجَّت خراسان داءها ... وقد نغلت أطرافُها نَغَل الجلد
وأوباشُها خزر إلى العرب الألى ... لكيما يكون الحر من خول العبد
ليالى بات العز فى غير بيته ... وعُظم وغدُ القوم فى الزمن الوغد
وما قصدوا إذ يسحبون على المنى ... برودهم إلا إلى وارث البُرد
ورامُوا دمَ الإسلام لا عن جهالة ... ولا خطأ بل حاولوه على عمد
فمجُّوا به سما وصاباً ولو نأت ... سيوفُك عنهم كان أحلى من الشهد

لقد عم الفساد فى خراسان ، وامتد ليشمل كل أطرافها ، على أيدى هؤلاء السفلة الأخلاط (أوباشها) الذين ينظرون إلى العرب المسلمين نظرة احتقار ومهانة ، فى الوقت الذى نعم فيه هؤلاء بالعز الذى لا يستحقونه ، وعظم أوغادهم ، ودفعتم أمانيهم إلى التفكير فى الخروج على الخليفة ، وإراقة دماء المسلمين ، ولم يكن ذلك منهم عن جهالة ، إنما هو مكر بيتوه على عمد ، ولما كان ذلك حالهم ، جلبوا على أنفسهم الحرب ، واستوجبوا القتال ، رداً على فسادهم ، ودفعا عن المسلمين .

---

(١) السابق : ١ / ٢٩٣ .

وقد ترجع مشروعية الجهاد إلى درء المفاسد ، كما فعل " إسحاق ابن إبراهيم " مع المُحَمَّرة من أصحاب بابك ، الذين أرادوا ابتداع دين جديد لهم . وفى ذلك يقول أبو تمام [1] :

عَمَمْتَ الخلق بالنعماء حتى ... غدا الثقلان منها مثقلين
ولولا سيفُك الماضى لسَمَّوا ... خَلِيلَىْ مُلَّةٍ ومُحمَّدَيْن
ولكن قلتَ والمُهجاتُ تَجرى ... معاذَ الله من كذبٍ ومَيْن

لقد أعمل الممدوح سيفه فى رقاب هؤلاء المفسدين ، ولولا ذلك لا تخذوا من رؤسائهم أنبياء وعظماء ولجعلوا لسيدنا إبراهيم نظيرا فيهم ولسيدنا محمد شبيها عندهم ، ومن هنا يصبح الدين دينَيْن ، والملة ملتين لأنهم إن فعلوا ذلك ، وأقاموا لهم صاحبا سيجعلون له شريعة يدينون بها لكن الممدوح يأبى أن يحدث ذلك ، فيجهز جيشه ، ويمحو به هؤلاء الخارجين ، مستجيبا لقوله تعالى : **{إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }** (المائدة : ٣٣) .

وقد تكون مشروعية الجهاد للعقاب والزجر ، لكل من تسول له نفسه الخروج عن الدين . ولا أدل على ذلك من موقف المعتصم من الأفشين ، الذى طالما قاد جيوش المسلمين ، وفتح بها الفتوح ، ونصر دين الله ، لكنه لما تزندق ، وأكن العداوة للملسلمين ، وخرج على الإمام أمر المعتصم بالقبض عليه وقتله ، ثم صلبه وأحرقه .

---

(١) الديوان : ٢ / ١٥٢ .

وقد صور أبو تمام أحداث هذه القصة تصويراً كاملاً ، بدأ من حيث مكانة الأفشين لدى المعتصم ، وانتقل إلى تصوير غدره وخيانته ، وانتهى بصلبه وإحراقه ، وهو فى كل ذلك يتكئ على موقف الإسلام من المرتد ، وما ينبغى أن يُفعَل فيه عقاباً له ، ثم هو يلجأ أيضا إلى السيرة النبوية ، يستمد منها ما يدل على أن أمثال الأفشين موجودون فى كل زمان ومكان ، فيسوق ما كان من خيانة " عبدالله بن سعد بن أبى السرح " كاتب الوحى للنبى ﷺ ، والذى كان يغير ما يقوله النبى ﷺ وكان يقول : لو كان محمد صادقاً لأنكر علىَّ هذا التغيير ، ولما كشف الله أمره . أهدر النبى ﷺ دمه يوم الفتح ، فشفع فيه سيدنا " عثمان بن عفان " رضى الله عنه .

يقول أبو تمام فى وصف مكانة الأفشين لدى المعتصم [1] :

قد كان بَوَّأه الخليفةُ جانبا ... من قلبه حرما على الأقدار
وسقاه ماء الخفض غير مصرَّد ... وأنامه فى الأمن غير غرار
ورأى به ما لم يكن يوما رأى ... عمرو بن شأس قبله بغرار

وفى الكشف عن سبب صلبه وإحراقه يقول :

صادى أمير المؤمنين بزبرج ... فى طَيِّه حُمَةُ الشُّجاع الضارى
مَكْراً بنى رُكنيه إلا أنه ... وطَد الأسَاس على شفير هار
حتى إذا ما الله شقَّ ضميره ... عن مستكن الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى ... والحقُّ منه قانئ الأظفار

(١) الديوان : ١ / ٣٣٥ .

ويقول فيه أيضا :

ورأى به ما لم يكن يوما رأى عمرو بن شأس قبله بعرار
فإذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى كعب زمان رثى أبا المغوار
دلت زخارفه الخليفة أنه ما كل عود ناضر بنضار

ويدافع أبو تمام عن موقف المعتصم ، حين اتخذ الأفشين قائدا له واختصه بما لم يختص به أحدا غيره ، ويسعفه التاريخ بما حدث للنبى ﷺ، ممن وثق فيهم ، فإذاهم أهل غدر ، ومكر ، وخيانة ، وكأنه بذلك يهون على المعتصم خدعة الأفشين له ، فيقول :

هذا النبى وكان صفوة ربه من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة وهُمُ أشدُّ أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى رفعت له سجفا عن الأسرار

إذن لم يكن المعتصم أول من خدع ممن وثق فيهم ، فمن قبله النبى ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى – قد اصطفى جماعة ومنهم ابن أبى السرح لكتابة الوحى ، فإذا به يغير ، ويبدل فيما يكتب ، حتى كشف الله ستره ، وأذاع سره ، وعندها أمر ﷺ بإهدار دمه ، وها هو المعتصم يسير على نهج النبى ﷺ فى معالجة المشكلة نفسها ، ويأمر بقتل الأفشين .

إن النماذج التى عرض لها أبو تمام ، والتى تدل على مشروعية جهاد الخليفة ، وولاة الأمر للخارجين عن الدين لكثيرة ، ثم هى متعددة الغايات ، متنوعة المرامى ، وحسبى ما عرضت منها .

وقد صور أبو تمام أحداث هذه القصة تصويراً كاملاً ، بدأ من حيث مكانة الأفشين لدى المعتصم ، وانتقل إلى تصوير غدره وخيانته ، وانتهى بصلبه وإحراقه ، وهو فى كل ذلك يتكئ على موقف الإسلام من المرتد ، وما ينبغى أن يُفعَل فيه عقاباً له ، ثم هو يلجأ أيضا إلى السيرة النبوية ، يستمد منها ما يدل على أن أمثال الأفشين موجودون فى كل زمان ومكان ، فيسوق ما كان من خيانة " عبدالله بن سعد بن أبى السرح " كاتب الوحى للنبى ﷺ ، والذى كان يغير ما يقوله النبى ﷺ وكان يقول : لو كان محمد صادقاً لأنكر علىَّ هذا التغيير ، ولما كشف الله أمره . أهدر النبى ﷺ دمه يوم الفتح ، فشفع فيه سيدنا " عثمان بن عفان " رضى الله عنه .

يقول أبو تمام فى وصف مكانة الأفشين لدى المعتصم [1] :

قد كان بَوَّأه الخليفةُ جانبا ... من قلبه حرما على الأقدار
وسقاه ماء الخفض غير مصرَّد ... وأنامه فى الأمن غير غرار
ورأى به ما لم يكن يوما رأى ... عمرو بن شأس قبله بغرار

وفى الكشف عن سبب صلبه وإحراقه يقول :

صادى أمير المؤمنين بزبرج ... فى طَيِّه حُمَةُ الشُّجاع الضارى
مَكْراً بنى رُكنيه إلا أنه ... وطَد الأسَاس على شفير هار
حتى إذا ما الله شقَّ ضميره ... عن مستكن الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى ... والحقُّ منه قانئ الأظفار

---

(١) الديوان : ١ / ٣٣٥ .

ويقول فيه أيضا :

ورأى به ما لم يكن يوما رأى عمرو بن شأس قبله بعرار
فإذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرذدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى كعب زمان رثى أبا المغوار
دلت زخارفه الخليفة أنه ما كل عود ناضر بنضار

ويدافع أبو تمام عن موقف المعتصم ، حين اتخذ الأفشين قائدا له واختصه بما لم يختص به أحدا غيره ، ويسعفه التاريخ بما حدث للنبى ﷺ، ممن وثق فيهم ، فإذاهم أهل غدر ، ومكر ، وخيانة ، وكأنه بذلك يهون على المعتصم خدعة الأفشين له ، فيقول :

هذا النبى وكان صفوة ربه من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة وهُمُ أشدُّ أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى رفعت له سجفا عن الأسرار

إذن لم يكن المعتصم أول من خدع ممن وثق فيهم ، فمن قبله النبى ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى – قد اصطفى جماعة ومنهم ابن أبى السرح لكتابة الوحى ، فإذا به يغير ، ويبدل فيما يكتب ، حتى كشف الله ستره ، وأذاع سره ، وعندها أمر ﷺ بإهدار دمه ، وها هو المعتصم يسير على نهج النبى ﷺ فى معالجة المشكلة نفسها ، ويأمر بقتل الأفشين .

إن النماذج التى عرض لها أبو تمام ، والتى تدل على مشروعية جهاد الخليفة ، وولاة الأمر للخارجين عن الدين لكثيرة ، ثم هى متعددة الغايات ، متنوعة المرامى ، وحسبى ما عرضت منها .

وإضافة إلى المعانى الإسلامية العامة ، التى دارت حول مشروعية الخلافة ، ومثالية الخليفة ، ومن مدحهم فى الأمور الدينية والدنيوية ، نجد أبا تمام يعمد إلى نوع خاص من المعانى الإسلامية يوظفه فى مواقف مختلفة من المدح ، وقد كان القرآن الكريم المنهل العذب ، الذى استقى منه هذه المعانى .

يقول أبو تمام فى مدح مالك بن طوق (١)

تبنى المعالى فى ظله وله ... حظ من الملك غير مختلس
فإن موسى وصلى على روحه ... الرب صلاة كثيرة القدس
صار نبيا وعظم بغيته ... فى جذوة للصلاء أوقبس

لقد ذهب أبو تمام إلى ابن طوق ، وهو يؤمل الحصول على فرس، لكنه بعد أن لقى الأميرَ عَظُم مطلبه ، فتجاوز الفرس ، وهنا يعمد الشاعر إلى تأكيد هذا المعنى ، ويسعفه القصص القرآنى فى تحقيق غايته فيضرب للممدوح المثل بسيدنا موسى عليه السلام ، حين جاوز أهله وغايته العودة بجذوة من النار ، غير أنه عاد إليهم ومعه النبوة ، وكأن أبا تمام قد نظر فى هذا المعنى إلى قول الله تعالى : { **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى** } (طه : ٩-١٣) .

ويتخذ أبو تمام من كرم وحسن وفادة سيدنا يوسف لإخوته ، ما يشحذ به همة ممدوحه . فيقول مادحاً ابن طاهر (٢) :

---

(١) الديوان ١ / ٣٥٧ .
(٢) أخبار أبى تمام : الصولى ١٤٠ .

أيهذا العزيـز قـد مسـنا الضـ ـر جميعـا وأهلنـا أشـتات
ولنـا فـى الرجـال شـيخ كبيـر ولـدينا بضـاعة مزجـاة
قَـلَّ طلابُهـا فأضـحت خسـارا فتجاراتُنـا كلُّهـا تُرّهـات
فاحتسب أجرنا وأوفِ لنـا الكيـ ـل وصَـدِّق فإننـا أمـوات

وقف أبو تمام كثيراً على باب ابن طاهر ، وحجز مدةً من الزمن فكتب هذه القصيدة ، التى يصور فيها حاله ، وحال من معه بخراسان وقد كان أخوة يوسف عليه السلام حين بعثهم أبوهم يتحسسون من يوسف وأخيه المعادل الذى اتكأ عليه الشاعر فى تصوير حالته حين وقفوا ببابه وكأنه ينظر فى ذلك إلى قول الله تعالى : **{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ }** (يوسف ٨٨) .

وقياسا على النسق القرآنى فى التشبيه ، يسوغ أبو تمام المعانى ويرسم الصور ، ويثير الأفهام . يمدح المعتصم بقوله [١] :

إقدام عمـرو فـى سـماحة حـاتم فى جود أحنف فـى ذكـاء إيـاس

فلا يروق التشبيه للحاضرين ، إذ كيف يشبه الخليفة المعتصم بمن هو أدنى منه ؟ وهنا يدفع أبو تمام هذا الوهم ، ويلقن المعترض درساً فى التأمل قبل النقد ، فيضعه أمام نموذج قدسى ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد جاء فيه المشبه به أدنى من المشبه فيقول لهم :

لا تنكروا ضربى لـه مـن دونـه مثلا شروداً فـى النـدى والبـاس
فـالله قـد ضـرب الأقـل لنـوره مـثلا مـن المشـكاة والنبـراس

---

(١) الديوان : ١ / ٣٦٢ .

ويسكت الحاضرون ، ولا يمتلكون سوى عبارات الثناء والتمجيد لهذا الشاعر ، الذى لولا ما تحصن به من ثقافة إسلامية ، ما استطاع دفع ما وجه إليه من تقصير .

لقد قاس الشاعر صحة تشبيه الأعلى بالأدنى ، على ما جاء فى قول الله تعالى :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
(النور : ٣٥)

هذه نماذج من شعر المديح ، اختلفت موضوعاتها ، والتقت قيمها، ولا يخفى أنها حملت أنفاس شاعر مستمسك بدينه ، متغن بمثله متألم إذا ما تعرض الإسلام أو المسلمون لأدنى أذى أو افتراء .

وقد بان لنا ، أن الشاعر قد استقى معظم معانى وأفكار مدائحه من التعاليم العامة للإسلام ، ومن مواقفه الخاصة ، أعانه على ذلك ما أخذ به نفسه من ثقافة إسلامية متعددة الروافد ، ولعل ما أوردته من نماذج يدل على مدى اعتماد الشاعر على معانى القرآن الكريم وتسخير تلك المعانى لخدمة الموقف الذى يعالجه . كذلك من الأمور التى ينبغى التنبه إليها ، أن الشاعر حين مدح الخلفاء والأمراء بالمثل الدينية ، ليس معنى ذلك أن ما مدحهم به متحقق فيهم بالفعل ، إنما هى نظرة الشاعر إلى المثالية ، التى يجب أن يتحلى بها الخلفاء والأمراء (فقد يكون الخليفة سيئ السلوك مثل الأمين ، لكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية

الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين ، وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات ، التى تطلبها الأمة فى خليفتها وراعيها لعله يثوب إلى طريق الرشاد) [1] .

(١) العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف ١٦١ .

أثر الإسلام فى معانى شعر الرثاء وأفكاره

لا شك أن الرثاء من أصدق الفنون الشعرية تعبيراً عن العواطف الإنسانية ، وقد رثى الشعراء الجاهليون موتاهم وقتلاهم ، رثاءً مريراً كشف عن أثر الفقد ، ولوعة الحزن ، وألم الفراق .

هذا وقد تباينت طرائقهم فى التعبير عن عواطفهم المكلومة ، فإذا كان المتوفى قد مات ميتة طبعية ، رثوا فيه : المروءة والكرم ، والنبل والشهامة ، وعددوا فضائله : من السؤدد والشرف ، والمجد والسيادة وبخاصة إذا كان سيداً من سادات العرب . أما إذا كان المرثى مقتولاً فى حرب ، أو مأخوذاً بثأر ، فلا عزاء للشعراء سوى المطالبة بأخذ ثأره . ومن ثم تتحول المرثية إلى بيان عسكرى ، وتهديد ووعيد للقاتل الذى لا مفر له من اللحاق به وأخذ الثأر منه .

وقد نظر الجاهلى إلى الموت نظرة سخط وكراهة ، فهو الذى يفرق جمعهم ويشتت شملهم ، ويضعف قوتهم ، ويذل عزتهم ، لذا دعوا عليه ، وأظهروا ألواناً من الجزع والفزع ، فشقوا جيوبهم ، ولطموا خدودهم ، وقاتلوه بألسنتهم ، على أن بعضاً منهم قد سلم للقدر ، ورضى بالمصيبة ، وسلى نفسه بذكر من غبر .

ولما كان عصر الإسلام ، ظلت عواطف الشعراء متعلقة بموتاهم حزينة على فقدهم ، متألمة لفراقهم ، إلا أن نظرتهم للموت قد تغيرت عما كانت عليه فى الماضى ، ذلك أن الإسلام قد رسم للمسلمين كيفية معالجة مواقف الموت ، فهو يدعوهم إلى الرضا بالقضا والتسليم للقدر ، والصبر عند الشدائد والمصائب ، استجابة لقوله تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ

الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة ١٥٥ : ١٥٧) .

فالإسلام لا ينكر وقع الخطوب على النفوس ، ومن ثم أرشد إلى الصبر والتأسى ، والرجوع إلى الله يقول النبى ﷺ أخبرنى جبريل عن الله تبارك وتعالى ، أنه قال : ﴿ ما ابتليت عبدى ببلية فى نفسه ، أو ماله أو ولده ، فتلقاها بصبر جميل ، إلا استحييت يوم القيامة أن أرفع له ميزاناً أو أنشر له ديوانا ﴾ (١).

وقد حرص الرسول ﷺ على رسم المنهج الاسلامى فى مواجهة الخطوب ، فحذر أصحابه ، ونهاهم عن أفعال الجاهلية "ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية " (٢) وفى الوقت نفسه بين لهم كيف يعبرون عن مشاعرهم الحزينة ، وذلك فى حدود قوله ﷺ لما مات ولده إبراهيم " إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون " (٣) .

وفى ظل هذا البيان المحكم أصبح الناس فى الإسلام خلقا آخر فى عاداتهم ، وتقاليدهم ، ومعتقداتهم وأصبح الرثاء وقد صبغ بمفاهيم الإسلام وقيمه ، فلم يعد للثأر من المسلمين مطالباً ، كيف وقد أصبح المقتول دفاعاً عن الدين شهيداً يرزق عند ربه ؟ ولم تعد مثل الجاهلية وحدها كافية للإشادة بالميت .

---

(١) مسند الشهاب ٣٣٠/٢ الباب الخامس عشر " باب إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة لـ (أبى عبدالله القطاعى) تحقيق : حمد بن عبدالمجيد السلفى . طبعة مؤسسة الرسالة . " ٢ . ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

(٢) انظر صحيح البخارى ١ / ٩٤٣ ، ٤٣٥ .

(٣) انظر صحيح البخارى ١ / ٩٤٣ ، ٤٣٥ .

انطلق الشعراء وفى مخيلتهم هذا المنهج المثالى فى معالجة المصائب ، يشيدون بمن قتل فى سبيل الله ، ويستسلمون لمن آن أوانه ، ويتأسون فى كل ما نزل بهم بكل ما أمروا به.

ولا يعنى ذلك أنهم جميعاً كانوا كذلك ، فالعواطف الإنسانية تختلف فى السيطرة عليها من إنسان إلى آخر ، لاسيما إذا كانت المصيبة فاجعة ، بفقد ولد وحيد ، أو عزيز فريد ، عند ذلك قد يضعف الإنسان أمام جلل الخطب ، فيقول ما لا يليق ، ها هو جرير يرفض الأجر من الله لما فقد ولده ، فيقول [1] :

قالوا نصيبك من أجـر فقلـت لهـم كيف العزاء وقـد فارقـت أشـبالى

أما ابن الرومى فقد كان أشد رفضا ، حيث يقول فى ابنه محمد[2] :

ومـا سـرنى أن بعتـه بثوابـه ولو أنه التخليـد فـى جنـة الخلـد
ولا بعته طوعـاً ولكـن غصـبته وليس على ظلم الحوادث من معدى

وفى ضوء ما جرت عليه عادة الجاهليين فى الرثاء ، وما رسمه الإسلام من طرائق للتعبير عن الحزن ، ولج أبو تمام هذا الفن بأصدق ما تكون العاطفة ، وأروع ما يكون التعبير والتصوير . وقد أحسن حين واءم بين المرثى وطريقة رثائه . فهو حين يرثى شخصية عامة : كالخلفاء والأمراء ، نجده يميل إلى عادة الجاهليين ، فى ذكر مناقب المرثى ، وتعديد خصاله ، والكشف عن أثر فقده على رعيته . وهو بعد ذلك بعيد عن التعبير الساخط ، والموقف الرافض للموت – فى الغالب – أما حين يتعرض لموقف خاص كرثاء الأبناء والأصدقاء ، فإننا نلحظه شديد التمسك

---

(١) شرح ديوان جرير : ص ٤٣٠ المجموعة الكاملة منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .
(٢) ديوان ابن الرومى ١ / ٣٠ اختيار وتصنيف كامل كيلانى . مطبعة التوفيق الأدبية .

بالقيم الإسلامية ، وبما دعت إليه فى مواجهة الخطوب . ولعل أبرز المعانى الإسلامية التى نلحظها فى شعر الرثاء تتمثل فى :

التأسى بالصبر والتجلد :

من مرثية له يواسى فيها " نوح بن عمرو بن حوى " بابنه ، يقول[1] :

عزاءً فلم يخلد حُـوىٌّ ولا عمـرو ... وهل أحد يبقـى وإن بسـط العمـر
سيأكلنا الدهر الذى غال مـن نـرى ... ولا تنقضى الأشياء أو يؤكل الـدهر
وأكثـر حـالات ابـن آدم خلفـةً ... يضل إذا فكرت فى كنهها الفكـر
فيفـرح بالشـئ المعـار بقـاؤه ... ويحزن لما صار وهـو لـه ذخـر
عليك بثوب الصبر إذ فيـه ملـبس ... فإن ابنك المحمود بعد ابنك الصـبر
وما أوحش الرحمن سـاحة عبـده ... إذا عاين الجلـى ومؤنسـه الأجـر

لقد استهل الشاعر مرثيته بما يبعث فى القلب الرضا ، حين ذَكَّر والد المتوفى بالحقيقة الثابتة ، التى لا مفرَّ لواحد منها ، كل الأنام إلى زوال ، مهما طال العمر ، وكأنه نظر إلى قول الله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ (الرحمن : ٢٦) ومن ثم فإن الإنسان يعيش وتعتريه أمور مختلفة ، تفرحه مرة ، وتحزنه أخرى ، **{ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }** (آل عمران : ١٤٠)

ومن ثم ، فليس أمام هذا المصاب سوى التحلى بالصبر (عليك بثوب الصبر) أى : إلزم الصبر ، واثبت عند الشدائد ، فليس لك من بعد ابنك من شئ محمود سوى الصبر ، كذلك يغريه بالأجر ، ذلك أن العبد إذا

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٢٠ .

احتسب مصيبته عند الله ، ورضى بقضائه ، وصبر على بلائه ، كان أجره من الله عظيماً ، ومؤنساً له فى وحشته .

وما أوحش الرحمن ساحة عبده إذا عاين الجلى ومؤنسه الأجر

وبالطريقة نفسها ، يرثى ابن نوح بن عمرو ، فيقول [1] :

أنوحَ بنَ عمرو إن ما حُمَّ واقعٌ وللأجنُب المُستعلَيات مَصارع
ألم يخترم عمروٍ وعمرو فَودَّعا ولاقَى الحُويَّان المنايا وماتع
فصبراً ففى الصبر الجلالةُ والتّقى ولا إثم إن خُبِّرتُ أنك جازع
فقد يأجر الله الفتى وهو كارهٌ وما الأجرُ إلا أجرهُ وهو طائع

لا رادَّ لقضاء الله ، هكذا دوى بها صوت أبى تمام ، لعله يوقظ بها غفلة أصابت ابن نوح (إنما حم واقع) كذلك مهما طال العمر ، أو استعلى الإنسان ، فلابد له من نهاية (وللأجنب المستعليات مصارع) ولا أدل على ذلك من ذهاب عمرو ، وعمرو – والدى المصاب – والحويان ، وماتع – عائلة الميت – وإذا كان الأمر كذلك فليس أمام ابن نوح سوى الصبر ، الذى هو دليل على التقوى ، والرضا بما قسم الله فصبراً ففى الصبر الجلالة والتقى) .

وبدافع من الأبوة الحانية التى ذاقت مرارة الفقد ، لا ينكر أبو تمام على المصاب أن يجزع بعض الشئ – مع صبره ورضاه – فالله تعالى يؤجر الفتى على الرغم من أنفه ، لكن الأجر الأجمل أن يطيع العبد ربه راضياً فيستحق الأجر .

فقد يأجر الله الفتى وهو كاره وما الأجر إلا أجره وهو طائع

---

(١) الديوان : ٣ / ٢٢١ .

هكذا كان أبو تمام مرشداً ، ومعلماً ، يستحضر من القرآن الكريم ما يهون به الخطب ، ومن السنة النبوية ما يطيب به النفس .

ولم يكن أبو تمام مجرد ناصح بتلك القيم الإسلامية لذوى المصائب فحسب ، إنما هو يأخذ نفسه بما يقول ، وينصحها بما يعتقد يفقد بنيه وأخوته ، فلا يملك سوى التسليم لأمر الله ، والرد على الشامتين الذين يرون أن موت بنيه وأخوته عار أصابه ، يقول [1] :

لا يشمت الأعداءُ بالموت إننا ... سنخلى لهم من عرصة الموت موردا
ولا تحسبنَّ الموتَ عارا فإننا ... رأينا المنايا قد أصبن محمدا
ولا يحسب الأعداءُ أن مصيبتى ... أكلَّت لهم منى لسانا ولا يدا
تتابع فى عام بنىَّ وأخوتى ... فاصبحت إن لم يخلف الله واحدا

على غير عادة الآباء يقف أبو تمام كالطود الأشم ، وقد مات ولده، يَنصَحُ ولا يُنصَح ، يَنهى ولا يُنهىَ ، يجأر بأعلى صوته : لا تشمتوا فى مصابى ، فالموت لن يترك ساحة إلا وسينزل بها ، ولا تحسبوا الموت عاراً تجللنى ، لما أخذ ولدى منى ، وإياكم أن تتوهموا أن مصيبة موت ولدى قد أضعفت يدى ، وأسكتت لسانى .

لكن لماذا كان أبو تمام كذلك ؟ ألم يكن ولده عزيزاً عليه ؟

لا شك أنه الإيمان الراسخ ، والعقيدة السليمة ، فقد أيقن أن الموت قدر مقدر ، ولا دواء منه سوى الصبر والتجلد ، والرضا بقضاء الله وقدره . ولعل قوله :

تتابع فى عام بنى وأخوتى ... فأصبحت إن لم يخلف الله واحدا

---

(١) الديوان : ٢ / ٢١٢ .

بدل على صلة الشاعر بربه ، واعتماده عليه فى الخلف ، ولجوئه إليه فى المصائب .

التذكير بمواقف السابقين :

لجأ أبو تمام فى مواساته إلى التذكير بمواقف السابقين ، ممن أصيبوا فى أبنائهم ، وأعزائهم فصبروا ، واحتسبوا حتى صاروا مضربا للمثل ، لعل المصاب يجد فى ذلك تسلية له .

من ذلك ما واسى به " مالك بن طوق " فى أخيه " القاسم " حيث يقول [1] :

أمالك إن الحزن أحلامُ حالم ... ومهما يدم فالوجد ليس بدائم
أمالك إفراط الصبابة تارك ... جناً واعوجاجاً فى قناة المكارم
تأمل رويداً هل تعدن سالماً ... إلى آدم أم هل تعد ابن سالم
متى تَرْعَ هذا الموتَ عيناً بصيرة ... تَجِدْ عادلاً منه شبيهاً بظالم
وإن تك مفجوعاً بأبيض لم يكن ... يشد على جدواه عقد التمائم
بفارس دعمى وهضبة وائل ... وكوكب عتاب وجمرة هاشم
شجا الريح فازدادت حنيناً لفقده ... وأحدث شجواً فى بكاء الحمائم
فمن قبله ما قد أصيب نبينا ... أبو القاسم النور المبين بقاسم
وقال علىٌّ فى التعازى لأشعث ... وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاءً وحسبة ... فتؤجر أم تسلو سُلوَّ البهائم
وللطُّرَّفات يوم صفين لم يمت ... خُفاتاً ولا حزناً عُدَىُّ بنُ حازم

بتفكير العقلاء ، وحكمة العلماء ، وبعقيدة المسلم بخاطب أبو تمام " ابن طوق " مذكراً إياه بعدد من الحقائق ، لعل فى مقدمتها : أن الحزن

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٣٧ .

ليس بدائم ، فهو كحلم سرعان ما ينتهى ، مهما طال الحزن فالوجد ليس بدائم ، وأن المبالغة فى الحزن تصيب صاحبها باعوجاج فى ظهره ، وتحول دون كرمه لما أقعدته .

وفى محاورة نفسيه عقلية مع المصاب ، يتساءل أبو تمام : هل سلم الآباء من الموت منذ عهد آدم عليه السلام ؟ وهل سلم الأبناء من بعدهم ؟! إنك لو تأملت بعين بصيرة حق التأمل ، وبحثت فى حقيقة الموت ، لوجدت منه عادلاً شبيهاً بظالم . ذلك أن فى الموت صلاحاً للميت ، لا يعلمه إلا الله .

وفى ذلك العدل كله ، لكن لما غاب وجه الحكمة عن الناس تصوروا أن الموت ظلم وقع عليهم .

متى ترع هذا الموت عينا بصيرةً تجد عادلاً منه شبيهاً بظالم

وبعد هذه المحاورة التى عمد إليها أبو تمام ، راح يعدد مناقب المرثى ، ويشيد بخصاله ، ويصور أثر فقده على الطبيعة ، التى حنَّت إليه والحمائم التى ناحت عليه ، فهو فارس قبيلته ، وكوكبها الذى يهتدون به وجمرتها التى يقذفون بها .

ويتدرج أبو تمام فى وسائل المواساة ، فيأخذ المصاب إلى حيث العبرة والأسوة ، يخاطبه لئن كنت قد فقدت أخاك ، فمن قبلك فقد النبى ﷺ ولده القاسم ، فلم يجزع ، ولم يسخط وإنما صبر واحتسب .

كذلك واسى الإمام " على " رضى الله عنه " أشعث " فى وفاة بنيه ، ونصحه بالبعد عن الوقوع فى المآثم ، ودعاه إلى التحلى بالصبر والتخلى عن الجزع حسبةً لله ، حتى ينال الأجر العظيم ، ويذكره ويواسيه أيضا بموقف " عدى بن حاتم " وقد قُتِل أبناؤه جميعاً يوم صفين فأحسن صبره ،

ولم يظهر جزعه ، لعل " ابن طوق " يجد فى كل هؤلاء سلوة تسليه ، وأسوةً يقتديها ، لا شك أنها قيم إسلامية فاضلة يحث عليها الشاعر فى أقسى الظروف ، ويجعلها دليلاً على الإيمان القوى ، والعقيدة الراسخة ، التى لا تهزها النوائب ، ولا تنال منها النكبات .

وفى موقف آخر يسوق فيه مواقف من فقدوا أعزاء لهم فصبروا، واحتسبوا ، يواسى أبو تمام المصاب بقوله [1] :

طَامِن حشاك أبــا الحبــاب فإنهــا نُوَبٌ تروحُ علــى الأنــام وتغتــدى
فلقــد أفــاق مــتمم عــن مالــك وسـلا لبيــدٌ قبلــه عــن أربــد
فلئن صبرت لأنت كوكــب معشــر صبروا وإن تجــزع فغيــر مفنَّــد

وكعادة أبى تمام واعتقاده يقرر أن المصائب والنوب قدر مقدر على العباد جميعا ، لذا فهى تروح وتغدو ، فى كل وقت وحين ، ومن سلم منها اليوم فإنها ستصيبه فى الغد ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ ومن أصابته فإنه – لا شك – سيفيق من حزنه ويخرج عن صمته ، مهما كانت آلامه وأحزانه ، فمن قبل حزن " متمم بن نويرة على أخيه "مالك" حزناً شديداً ، وجزع عليه جزعاً مريراً ، وهام على وجهه يبكى كل قبر يراه ، ويُروِّيه بدموعه ، وقال فيه من الشعر ما جعل سيدنا " عمر ابن الخطاب " يتمنى لو أنه يحسن الشعر ، حتى يرثى أخاه " زيدا " كما رثى متمم أخاه مالكا [2] ، وعلى الرغم من كل ذلك أفاق متمم من لوعته، واستسلم لقضاء الله وقدره .

---

(١) الديوان : ٢ / ٢١٢ .
(٢) انظر الشعر والشعراء (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى) تحقيق الدكتور / مفيد قميحة . ص ٢١٠ دار الكتب العلمية . بيروت .

ولا يختلف الحال كثيراً عند " لبيد " الذى آثر الانزواء بمصيبته والتفرد بكآبته ، لما مات " أربد " حتى سلاه . وبعد هذا التذكير والاستدلال على نهاية الحزن ينصح الشاعر المصاب بالصبر ، والتجلد وإنه إن صبر عد كوكبا فى سماء الصابرين ، وإن جزع دل على ضعفه، وقلة حيلته .

الإشادة بمثالية المرثى :

لقد حث القرآن الكريم المجاهدين على الثبات أمام العدو فى أرض المعركة فقال تعالى : **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ }** (الأنفال : ٤٥) .

وذم من تسول له نفسه الفرار إلا لعذر ، أو خدعة لعدو ، كما قال تعالى : **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }** (الأنفال : ١٥ - ١٦)

فى ضوء هذه التعاليم الربانية ، التى رسمت صفات المقاتل المسلم ينطلق أبو تمام مشيداً بموقف واحد من قواد المسلمين ، ممن تجسدت فيهم صفات البطل المسلم ، الذى آثر الثبات على الفرار والاستشهاد على الحياة فاستحق من الله منزلة الشهداء ، ومن أبى تمام أروع ما قال ، مما جعل أبو دلف يتمنى أن لو قتل فقيلت فيه تلك المرثية، إنه البطل " محمد بن حميد الطوسى ، والذى قال فيه أبو تمام[1] :

ألا فى سبيل الله من عُطِّلت له ... فجاجُ سبيل الله وانثغر الثغرُ
فتىً مات بين الطَّعنِ والضرب ميتةً ... تقومُ مقامَ النصر إذ فاتَه النصرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفهِ ... من الضرب واعتلَّت عليه القنا السُّمْرُ

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٨٨ .

وقد كان فَوْتُ الموت سهلاً فردَّه ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُق الوعرُ
ونفسٌ تخاف العارَ حتى كأنه ... هو الكُفر يوم الرَّوْع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجلَه ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردَّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سُندس خضر
عليك سلام الله وقفاً فإنني ... رأيت الكريَم الحرَّ ليس له عُمر

لقد أدرك أبو تمام أن فى الجهاد إقامة للدين ، حفظاً للثغور ، وعزة للمسلمين ، وهذا كله ما دفع ابن حميد للجهاد ، فأيده الله بفتح الثغور وهزيمة الرومان فى أكثر من موقعة ، ثم من عليه بالشهادة .

وينتقل أبو تمام بعد ذلك ، ليصور لنا مشهد استشهاد هذا البطل الذى التفت حوله جموع " بابك الخرمى " كما يقول " ابن الأثير " : (وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفَرَّ من كان معه غير رجل واحد، وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى جماعة وقتالاً ، فقصدهم ، فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه فحين رآه الخرمية قصدوه ، لما رأوا من حسن هيئته ، فقاتلهم وقاتلوه ، وضربوا فرسه بمزارق ، فسقط على الأرض ، وأكبُّوا على محمد بن حميد فقتلوه) [1] .

هكذا كان حديث التاريخ عن مثالية وشجاعة هذا البطل ، وقد استلهمها أبو تمام ، وساغها لحنا تردده المشاعر ، وتهتف به القلوب . لقد مات ابن حميد ميتة لا تقل عن النصر ، لما بذله من دفاع عن الدين ولما جلبته له هذه الميتة من شهادة تدخله الجنة بإذن الله ، لقد أيقن ابن حميد أن المسلم الحق لا ينبغى له الفرار من عدوه ، كما أمره ربه ، لذا تثبت فى

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكلام المعروف بابن الأثير) جـ ٦ حوادث ٢١٤ ــ دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م .

مكانه ، تدفعه إلى ذلك – أيضا – همة أبيه ، وخلق وعر على أعدائه ، ونفس تخاف عار الفرار ، خيفتها من الكفر ، ومن ثم أثبت فى مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر ، لا شك أنها مثالية نادرة ، لا يتحلَّى بها إلا الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الله فاشتراها الله منهم غالية ، وألبسهم بدلاً من ثيابهم التى لطختها الدماء ثياباً خضراً من سندس، وأسكنهم عالى جنانه مع الأنبياء والصديقين ، وكأن أبا تمام ينظر إلى قول الله تعالى : **{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }** (التوبة : ١١١) .

لقد أثبت أبو تمام فى مراثيه تأثره الشديد بالمعانى الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ومن ثم كانت هذه المعانى الدواء الناجع ، الذى عالج به داء الفقد ، ووقع الخطوب .

ولا تعنى هذه النماذج ، أن شعر الرثاء عند أبى تمام قد جاء كله على هذه الشاكلة . فقد أشرت فى بداية الحديث أنه سلك الطريقين فى الرثاء ، طريق الرثاء بتعديد مناقب المرثى ، والإشادة به ، والنوح عليه والجزع لفقده ، ثم هذا الطريق ، الذى انعكست عليه قيم الإسلام ومثله وخاصة إذا كان الرثاء لفقد عزيز كالولد أو الصديق .

أثر الإسلام فى معانى شعر الهجاء وأفكاره

لم يتورع الشعراء فى العصر الجاهلى عن ذكر مثالب المهجو الخلقية والخلقية ، تدفعهم إلى ذلك عصبية قبلية ، ملأت عليهم نفوسهم وتحكمت فى تصرفاتهم ، أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك دين يمنعهم ولا أخلاق تردعهم ، عن الولوج فى الأعراض وكشف الأستار ، وتمزيق الأواصر ، حتى صار هذا الفن ميداناً رحباً ، صور من خلاله الشعراء ضغائن قلوبهم ، وما تخفيه صدورهم ، فهيجوا بما قالوا النفوس، وأوغروا الصدور ، فكثرت الخصومات وتعددت أسباب العداوات والصراعات .

ولما جاء الإسلام هذَّب الطباع ، وطهَّر النفوس ، واستل ضغائن القلوب ، وقضى على كل أسباب الطيش ، فنبذ العصبيات ، وذم الفحش ونهى عن الخوض فى الأعراض ، فهدأت النفوس ، ولانت القلوب وتدبرت العقول ، فصار الناس أخواناً بتوادهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم وانصرف الشعراء إلى نشر الدعوة الإسلامية ، وعكفوا على تفقه دينهم الجديد ، ولم يعد للهجاء فى نفوسهم مستقرا ، سوى ما كانوا يجابهون به شعراء المشركين .

وظل الشعراء على هذا المنهج الإسلامى فى الهجاء ، حتى كان عصر بنى أمية ، فعصر بنى العباس ، وفيهما ارتد كثير من الشعراء فى هجائهم إلى ما كانوا عليه فى العصر الجاهلى ، تدفعهم إلى ذلك سياسة لا همّ لها سوى التخلص من الخصوم ، والتشهير بالأعداء ، بل إن كثيراً من الخلفاء والأمراء قد دفعوا الشعراء إلى المبالغة فى الهجاء وإباحة القول فى كل ما نهى الإسلام عنه ، انتصاراً من خصومهم وإلهاءً للناس بهم عنهم ،

وقد كان الشعراء أداة لينة ، فى أيدى الخلفاء والأمراء ، بما أغروهم به من عطايا ، وبما خصوهم من هبات .

ولم تكن السياسة وحدها المسؤولة عن خروج الهجاء عما رسمه الإسلام ، فإن طبيعة المجتمع وما طرأ عليه من اختلاط العرب بغيرهم قد جعل الكثير ينجرف فى تيار الحضارة الجديدة ، وإن خالف ذلك عادات العرب وتقاليدهم ، ومعتقداتهم ، ومن ثم وُجِد من الشعراء من وقف فى وجه هؤلاء الخارجين ، يهجون أفعالهم ، وينقصون من أقدارهم . بل إن من الشعراء من وجه سهام هجائه إلى (الخلفاء والأمراء ، كلما رأوهم يخرجون عن الجادة ، على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية ، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية ، التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد) [1] .

وإذا ما استعرضنا أثر الإسلام فى معانى شعر الهجاء ، وأفكاره عند أبى تمام ، نجده يتخذ من الهجاء وسيلة للتقويم والتهذيب ، ودعوة إلى إصلاح المجتمع * كذلك نلحظ أنه كان يعمد إلى تجريد المهجو من الصفات النبيلة ، التى حث عليها الإسلام ، والقيم المثلى التى حض عليها . ولعل من أبرز القيم والمعانى الإسلامية التى هجا بها أبو تمام التجرد من الحياء ، نجد ذلك فى قوله ، يهجو أحد بنى حميد [2] :

إذا جاريت فى خلق دنيئاً ... فأنت ومن تجاريه سواء
رأيت الحر يجتنب المخازى ... ويحميه عن الغدر الوفاء

---

(١) العصر العباسى د/ شوقى ضيف : ١٦٧ .
* لا يمنع ذلك أن يكون أبو تمام قد عمد إلى الهجاء الشخصى اللاذع فى كثير من هجائه .
(٢) الديوان ٢ / ٣١١ .

وما من شدة إلا سيأتى لها من بعد شدتها رخاء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحى فافعل ما تشاء

يعرض أبو تمام بخلق مهجو ، فيذم فيه سوء اختياره لصحبته ، فالمرء كما قال المصطفى ﷺ على دين خليله ، ومن ثم يتساوى الأخلاء فى الأخلاق ، ويتقاربون فى الأفعال .

كذلك يعرض بأفعاله الدنيئة ، فالحر من يجتنب مواطن الخزى والشبهات ، ومن يقف وفاؤه دون غدره

رأيت الحر يجتنب المخازى ويحميه عن الغدر الوفاء

وكأن أبا تمام متأثر بحديث النبى ﷺ القائل فيه : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان " (١) .

ثم يختتم أبو تمام هجاءه وتعريضه بما حذر منه النبى ﷺ ، ونهى المسلمين عن الوقوع فيه ، ألا وهو التجرد من الحياء . ذلك أن المسلم يعيش بخير ، وفى خير ، ما دام متمسكاً بالحياء ، الذى هو جماع كل معروف ، ومن ثم عده النبى ﷺ شعبة من شعب الإيمان ، حيث يقول : " الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان "(٢) لذا إذا فقد الإنسان الحياء ، فلا يلام على منكر فعله (إذا لم تستح فافعل ما تشاء) .

ويبدو أن ظاهرة الانغماس فى الحضارة الوافدة ، وما ترتب عليها من اختلاط للأحساب والانساب ، وضعف الوازع الدينى فى نفوس

---

(١) البخارى : ١ / ١٣ باب أمور الإيمان .
(٢) السابق نفسه .

البعض، كان ذلك كله سبباً من أسباب تحذق التجرد من الحياء يدلنا على ذلك قول أبى تمام يصور حال مجتمعه [1] :

فاض اللئـــام وغاضـــت الأحســـاب ... واجتثـــــت العليـــــاء والآداب
فكـــأن يـــوم البعـــث فاجـــأهم فـــلا ... أنســـــاب بيـــــنهم ولا أحســـــاب
أمويس لا يغنـــى اعتـــذارك طالبـــاً ... عفوى فمـــا بعـــد العقـــاب عقـــاب
من كـــان مفقـــود الحيـــاء فوجهـــه ... مـــن غيـــر بـــواب لـــه بـــواب

ينكر أبو تمام على المجتمع تناقضه ، وعدم تمسكه بمثله وقيمه ، فقد فاض اللئام ، واختلطت الأنساب وضاعت الآداب ، وقعدت الهمم عن العلياء ، وكأن المجتمع فى هيئته هذه من التخبط قد فاجأه يوم البعث، حيث لا أحساب بينهم ولا أنساب . وفى النهاية يقرر : أن من فقد الحياء فقد جعل وجهه بواباً . وفى ذلك امتهان واحتقار لشأن من تجردوا من الحياء .

ومن المعانى الإسلامية التى تأثرها أبو تمام فى شعر الهجاء : الصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، وقد كانت هذه المعانى سلاحاً شهره فى وجوه من تجردوا منها .

فمن قصيدة له فى هجاء عياش يقول [2] :

عياش مالـــك فـــى أكرومـــة أرب ... ولا لأكرومـــــة فـــى ســـاقط أرب
يا أكثر الناس وعداً حشـــوه خلـــف ... وأكثـــر النـــاس قـــولاً كلـــه كـــذب

فعياش لا يعرف الكرم إليه طريقاً ، وهو أكثر الناس وعداً ، غير أنه مخلف وعده ، وهو أكثر الناس قولاً ، إلا أن كل قوله كذب ، فهو إذا

---

(١) الديوان : ٢ / ٣١٨ .
(٢) الديوان : ٢ / ٣١٩ .

وعد أخلف ، وإذا حدث كذب وكأن أبا تمام يجعله فى عداد المنافقين الذين حدد النبى ﷺ صفاتهم فى قوله : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان " .

وقد يهدف أبو تمام من هجائه إلى تطهير المجتمع من بعض الرذائل ، التى شاعت فيه ، ولعل قصائده الكثيرة فى هجاء " مقران المباركى – وكانت زوجة داعرة ، على حد قول أبى تمام – تصور غيرة الشاعر ، وحرصه على بناء المجتمع بناءاً طاهراً سليماً مستمسكاً بتعاليم الإسلام وقيمه ، مجرداً عن كل النقائص الأخلاقية .

يقول فى مقران يهجو زوجه [1] :

يا زوجة المسكين مقران التى ... عظمت على المتطرفين وفاتها
خلت القبور بظبية عهدى بها ... فيما يقال : لذيذة خلواتها
تركت على المسكين عدة صبية ... مثل الفراخ تخرمت أماتها
لو كان أحصن بابه أو داره ... قلت بنوها عنده وبناتها
إن البلاد إذا السيول تعاورت ... ساحاتها غمر الفضاء نباتها

فى سخرية واحتقار ، وامتهان وصغار ، يرسم أبو تمام تلك اللوحة الفنية ، التى تحكى حال تلك المرأة ، التى ما عظمت وفاتها إلا على أولئك الذين كانوا يجدون اللذة المحرمة عندها ، لقد ماتت وخلفت عدداً من الصغار ، الذين يشبهون الفراخ ، التى ماتت عنها أمهاتها ، ويعلل الشاعر لهذه الكثرة من الأبناء بقوله : إن زوجها لم يحصن بابه ، ولم يغلق داره ، ولو أنه فعل ذلك لقل بنوه وبناته ، وفى ذلك إشارة إلى سوء خلقها ، ويؤكد

---

(١) السابق : ٢ / ٣٢٣ .

أبو تمام دعوته فى وجوب المحافظة على الأعراض، وأن الغفلة عن ذلك شر لا يمكن درؤه ، كالسيل إذا تعاور على البلاد غمر الفضاء نباته .

إن البلاد إذا السيول تعاورت ساحاتها غمر الفضاء نباتها

وعن سوء خلق مقران ، وقلة غيرته يقول :

متناوم إن زارها خلانها متيقظ إن زارها أخواتها

وفى ذم الظاهرة نفسها ، يهجو أبو تمام يوسف السراج ، فيقول فى زوجه (١) :

للمرء فى القرآن أربع نسوة ولتلك أربعة من الأزواج

كذلك هجا أبو تمام غيرة الإنسان فى غير موضعها ، من ذلك أنه هجا عياشاً بأنه يغار على طعامه لا على نسائه ، مخالفاً بذلك طبيعة البشر، وقيم المجتمع ، وتعاليم الدين ، فيقول (٢) :

صدق أليّته إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البر من قسمه
فإن هممت به فافتك بخبرته فإن موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبنى لو أن غيرته على جرادقه كانت على حمره*

ولما كان البخل من الصفات التى نهى الإسلام عنها ، جعله أبو تمام عيباً يرمى به المهجو ويذم ، كقوله فى عياش (٣) :

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٢٥ .
(٢) السابق : ٢ / ٣٦٨ . اليته : يمينه وقسمه جرادقه . الجرادق : الأرغفة من العيش وهى فارسية .
(٣) الديوان : ٢ / ٢٣٢ .

عيـــاش يـــاذا البخـــل والتصـــريد وســـــلالة التضـــــييق والتنكيـــــد
لـــؤم تـــــدين بحلـــــوه وبمـــــره فكأنـــــه جـــزء مـــــن التوحيـــــد

لا شك أن هجاء أبى تمام من هجاهم لم يكن مجرد هجاء شخصى، بقدر ما هو غاية يرمى إليها ، يصلح من خلاله قيماً قد انحرفت ، وأخلاقاً إلى الرذيلة قد انجرفت ، وقد كان حديث النبى ﷺ رافداً ثراً ، استقى منه معظم معانى وأفكار هجائه .

أثر الإسلام فى معانى شعر الغزل وأفكاره

احتل الغزل فى الشعر الجاهلى مكاناً عظيماً بين فنون الشعر ، ومكانة سامية فى نفوس الشعراء ، كيف لا وهو المتنفس عن مكنون صدورهم ، والمثير لانفعالات المستمعين إليهم ، والموقظ لعقولهم ؟ مما جعل الشعراء يجعلونه حلية أشعارهم ، ومفتتح قصائدهم .

وقد أسهب الشعراء الجاهليون فى تصوير المرأة ، حتى إنهم لم يتركوا فيها عضواً ظاهراً أو خفياً إلا وعرضوه فى شعرهم (كأنما كانوا يريدون أن تكون ماثلة أمام العيون فتسر برؤيتها ، وتنشرح النفوس بمنظرها ، وقد حاول الكثير منهم أن يتتبع جسمها جزئية جزئية لترى بجمالها الكامل ، من ناصيتها إلى قدمها) [1] .

ولما جاء الإسلام نهى الشعراء عن المبالغة فى الحديث عن المرأة كما حذرهم من الفحش فى القول ، وأمرهم بالبعد عن الحرمات ، وتهييج المشاعر ، وإثارة الأحاسيس بما يصورونه من أفعال ، أو يصفونه من أقوال ، لكن سرعان ما انفك الشعراء عن هذا المنهج ، وبخاصة فى العصرين : الأموى ، والعباسى ، نتيجة للتغييرات التى أصابت المجتمع وأحدثتها نظم السياسة ، فقد فتن الناس بالحضارة ، وأغراهم الترف وصرفهم النعيم إلى البحث عن الملذات أنى كانت ، وغفلت عنهم الأعين المراقبة ، وضعف الإيمان فى نفوس بعضهم ، بل فى نفوس بعض خلفائهم وأمرائهم ، ومن ثم هام الشعراء بالمرأة ، واستجابوا لنوازعهم الشهوانية حتى وصفوا فيها مالا يتحرجون منه ، وصفاً جَسَّد عبثهم ، وصَوَّر مجونهم ، وعكس مدى الحرية والانفلات الأخلاقى ، الذى وصل إليه

---

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى د/ على الجندى ص : ٤١٥ مكتبة دار التراث للنشر والتوزيع .

الشعراء ، على أن من الشعراء من لزم جادة الطريق ، ولم ينجرف فى تيار هؤلاء واتبع منهجاً معتدلاً فى الحديث عن المرأة ، وهؤلاء هم المعروفون بالشعراء العذريين .

وحين نعرض لأثر الإسلام فى معانى شعر الغزل عند أبى تمام فإننا نسجل بداية ، أن أبا تمام لم يكن من الشعرءا الذين شهروا بالغزل أو بمعنى آخر : إن فن الغزل لم يصل إلى مستوى بقية الفنون الشعرية عند أبى تمام كما وكيفا ، فالقصائد قليلة ، ثم هى مقطوعات ، قد تصل إلى ثلاثة أبيات ، إضافة إلى أن الجانب الأكبر من هذه القصائد جاء فى مقدمات قصائد المديح ، ولعل هذا الأمر يفسر لنا علاقة أبى تمام بالمرأة من جهة ، ونظرته إليها من جهة أخرى .

أما علاقته بها فهى لا تتجاوز – فى الغالب – علاقة المبدع القادر على الغوص وراء كل الفنون . ومن ثم فإنه يستحضر المرأة موضوعا شعرياً لا أكثر ، يدلنا على ذلك أنه لم يشهر عنه أنه صاحب مغامرات ، أو أنه تستهويه مجالس النساء ، وقد انعكس ذلك على المستوى الفنى للغزل عنده ، فهو فى الغالب يتسم بسطحية التصوير ، وفتور العواطف . أما نظرته إلى المرأة فإنها تتجاوز أنوثتها ، وتختفى أمامها مفاتنها – إلا ما ندر – فهو يهيم بالمرأة روحاً أكثر منها جسداً ، وهو يعجبه فيها إباؤها لا انقيادها ، وعصيانها ، لا طاعتها ، ومن ثم كثر حديثه – وإن كان قدرة فنية – عن ابحر ، والفراق ، والصبابة ، واختفت المرأة بجسدها ومفاتنها ، إلا ما ندر من بعض القصائد ، كذلك اتسمت بعض القصائد بشيوع بعض المعانى والأفكار الإسلامية فيها .

ففى إحدى قصائده يجعل حبه قدراً من عند الله ، لذا فهو مستسلم لقضاء الله ، راض بقدره , يقول [1] :

أبـــى الله إلا أن كلفـــت بحبـــه فاصـــبحت فيـــه راضـــياً بقضـــائه

وفى أخرى يقول مخاطباً مخبوبه [2] :

لقد خلق الله الهـوى لـك خالصـاً ومكنه فى الصدر منى بـلا غـش

أما صفات تلك المرأة فهى كما يقول عنها [3] :

من كل ســابغة الشــباب إذا بــدت تركــت عميــد القــريتين عميــدا

إنها تسحر بجمالها العيون ، لما جرى شبابها فى كل جسدها ، حتى أنها لو طلعت على رئيس القرية الوقور لتركته عميدا – أى ذهب الحب بقلبه – وكأن أبا تمام قد تمثل قول الله تعالى :

{ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } (الزخرف : ٣١)

وهى أيضا تشبه ما قصَّه القرآن الكريم عن بلقيس حيث يقول[4] :

قد أوتيت مـن كـل شـئ بهجـة وَدَداً وحُسنا فـى الصـبا ملموسـا
لـــولا حـــداثتها وأنـــى لا أرى عرشـــاً لهـــا لظننتهـــا بلقيســـا

لقد وهب الجمال لتلك المرأة ، ما جعل الشاعر يتوهم أنها بلقيس فى جمالها وهيبتها ، وما دفع عنه هذا الاعتقاد سوى تقادم هذا العهد ، وأنه

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٨ .
(٢) السابق : ٢ / ٢٧٧ .
(٣) نفسه : ١ / ٢١٩ .
(٤) الديوان : ١ / ٣٦٩ .

لم ير عرشاً لها ، ولا شك أنه قد وقع على هذا المعنى من قول الله تعالى : {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } (النمل : ٢٣) .

وحين يعلن المحبوب عن تمرده ، ويظهر من دله وتفرده ، يلجأ أبو تمام إلى الله راجياً الصفح عنه ، وداعياً ألا يجعله الله حديثاً للشامتين، والحاسدين ، يقول [١] :

ولِـي مـن الـدنيا هـوى واحـد ... يارب فاصـفح لـى عـن الواحـد
لا تتركنـى فيـه يـا ذا العـلا ... أحدوثـة الصـادر والـوارد
يـا رب إن فارقتـه بعـدما ... أضـرَعَنى للشـامت والحاسـد
فـألحِق الـروحَ جثمانـه ... بوهـدة المحتفـر اللاحـد

هذه نماذج من شعر الغزل ، وإن كانت قليلة العدد ، فاترة العاطفة إلا أن أبا تمام قد شكل معظم معانيها ، واستقى أفكارها من مخزونه الثقافى الاسلامى ، حتى رأينا معانى آيات القرآن الكريم تمثل جانباً مشتركاً فى بناء الفكرة عنده .

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٦٤ .

أثر الإسلام فى معانى شعر الزهد وأفكاره

لعل شعر الزهد من الموضوعات الإسلامية الخالصة ، ومن ثم فإن كل معانى وأفكار هذا الفن كان صدى لما استقر فى وجدان الشعراء الذين لم تفتنهم الحياة بزخارفها ، وثمرة لما غرس من إيمان فى قلوبهم وترجمة صادقة لما تعتمل به أفئدتهم .

وإذا كان معظم الذين شهروا بالزهد هم أبناء تلك الفئة الفقيرة من المجتمع فإن من الشعراء الذين أتيح لهم حظ فى الدنيا ، وتقلبوا فى نعيمها ، وارتموا فى أحضان شهواتها ، قد ثابوا إلى رشدهم ، فهجروا حياة اللهو والمجون ، التى طالما انغمسوا فيها ، والحانات والأديرة التى طالما تغشوها ، يدفعهم إلى ذلك إحساسهم بدنو أجلهم ، وسوء عملهم ، وكان الزهد والرجوع إلى الله وسيلتهم فى علاج ما اقترفوا من آثام ، على نحو ما هو معروف عن أبى العتاهية وغيره ، بل إن فريقا من الشعراء المجان قد طرق هذا الفن ، استجابة لإشباع رغبات العامة من الناس ، ممن كانوا يجدون فى الزهد راحتهم ، وغذاء لعواطفهم ، على نحو ما فعل أبو نواس فى بعض أشعاره .

وإضافة إلى هذين الصنفين من شعراء الزهد ، هناك من الشعراء من لم يكن فقيرا تقيا ، أو ماجناً شقيا ، إنما هو يعيش حياته بين الجد والهزل ، والالتزام والتقصير ، تقبل عليه الدنيا فيستجيب لمفاتنها وتستيقظ فيه نوازعه الدينية فتثنيه عن غيه .

وأبو تمام واحد من أولئك الذين تقلبوا فى نعيم الدنيا فنعموا به ، ثم وقفت أخلاقهم دون فناء عمرهم فى لهو الحياة ، وإشباع الرغبات ، ومن

ثم نراه يندم على كل فعل قصر به دون العمل الصالح ، ويشفع كل إثم بتوبة وندم ، حتى وصل فى النهاية إلى حالة من الرضا ، بما هو مقدر له فكان أن زجر نفسه ، وذكرها بفناء العمر ، والوقوف أمام الله لتسال عن كل كبيرة وصغيرة . ومن ثم نراه يوجه دعوته إلى إصلاح النفس ، بالتمسك بالدين والبعد عن التفاخر بالأحساب والأنساب ، فأعظم نسب عنده من جمع بين حسن الدين والدنيا . يقول (١) :

إذا مـــا شُـــبَت حســـن الديـــ ـــــن منـــك بصـــالح الأدب
فممـــن شـــئت كـــن فلقـــد فلحـــت بـــأكرم النســـب
فنفســـك قـــط أصـــلحها ودعنـــى مـــن قـــديم أب

وكان أبو تمام كلما خلا بنفسه ، عاتبها عتاباً شديداً على تفريطها وتعهد أن يعمل جاهداً على إصلاح حاله ، فقد ابيض مفرقه ، ودنا أجله وسيطر عليه الخوف من الله ، حتى صار أمله أن يفارق الدنيا، لا له، ولا عليه ، لكن أمله فى الله أن يغفر له خطاياه ، ويدفعه إلى البشرى خاصة أنه لم يشرك به أحدا ، وأنه يدخر من التقوى ما قد يشفع له . يقول فى ذلك (٢) :

ألم يـأن تركـى لا علـى ولا ليـا وعزمى على ما فيه إصلاح حاليـا
وقد نال منى الشيب وابيض مفرقـى وغالت سوادى شـهبة فـى قـذاليا
وحالت بى الحالات عمـا عهـدتها بِكَرِّ الليـالى والليـالى كمـا هيـا
أصوت بالـدنيا وليسـت تجيبنـى أحـاول أن أبقـى وكيـف بقائيـا
وما تبـرح الأيـام تحـذف مـدتى بعـدِّ حسـابٍ لا كَعـدِّ حسـابيا
لتمحـو آثـارى وتُخلـقَ جـدَّتى وتُخلى من ربعـى بكُـرهِ مكانيـا

(١) الديوان : ٢ / ٤٥٩ .
(٢) الديوان : ٢ / ٤٦٣ .

كما فعلت قبلى بطسم وجرهم وآل ثمود بعد عادِ بن عاديا
وأبقى صريعاً بين أهلى جنازة ويحوى ذوو الميراث خالص ماليا

وكان كلما مالت نفسه ، وركنت إلى الدنيا ، وَهوَّمت بها فى سماوات الأمانى ، ذكرها بأن الليالى سوف تغتصب مهجته ، كما غصبت من قبل القرون الخوالى ، وسوف تنزله لحداً ، يطول مكثه فيه ، كما أسكنت من قبل ساماً ، وحاماً ، ويافثاً ، ونوحاً ، ومن أضحى بمكة ثاويا :

أقول لنفسى حين مالت بصغوها إلى خطرات قد نتجن أمانيا
أليس الليالى غاصباتى بمهجتى كما غصبت قبلى القرون الخواليا
ومُسكِنَتِى لحداً لدى حفرة بها يطول إلى أخرى الليالى ثوائيا
كما أسكنت ساماً وحاماً ويافثا ونوحاً ومن أضحى بمكة ثاويا
فقد أنست بالموت نفسى لأننى رأيت المنايا يخترمن حياتيا

وتأتى الأبيات الأخيرة ، لتكشف لنا عن علاقة أبى تمام بربه ورجائه واتكاله عليه فى غفران ذنوبه .

فياليتنى من بعد موتى ومبعثى أكون رفاتاً لا علىَّ ولا ليا
أخاف إلهى ثم أرجو نواله ولكن خوفى قاهر لرجائيا
ولولا رجائى واتكالى على الذى تَوحَّد لِى بالصُّنع كهلاً وناشيا
لما ساغ لى عَذْبٌ من الماء بارد ولا طاب لى عيش ولا زلت باكيا
على إثر ما قد كان منى صبابة ليالى فيها كنت لله عاصيا
فإنى جدير أن أخاف وأتقى وإن كنت لم أشرك بذى العرش ثانيا
وأدخر التقوى بمجهود طاقتى وأركب فى رشدى خلاف هوائيا

إن حسن ظن أبى تمام بربه ، ورجاءه فيه ، جعله يتعلق بالأمل فى أن يغفر الله له ما قد كان منه فى صباه (ليالى فيها كنت لله عاصيا) ومما

جعله لا يقنط من رحمة الله ، أنه لم يشرك به أحداً ، وأنه يدخر من التقوى، ويخالف هوى نفسه قدر طاعته .

لا شك أنها نبضات قلب عامر بالإيمان ، قلب يدرك أن العبد ما لم يتداركه الله برحمته لفسدت حياته ولأصابه اليأس ، وكأن أبا تمام يضع نصب عينيه قول الله تعالى :

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (الزمر : ٥٣) .

وفى لقاء آخر يُبَصِّرُ الشاعر نفسه بالعديد من الأمور ، التى قد تكون غفلت عنها ، ويسدى لها من النصح ما ينفعها إذا ما دنا أجلها وانقطع عملها ، وقد كانت حقيقة الموت من أبرز الحقائق التى نبه إليها ومن ثم فإنه لا قيمة من التكالب على الحياة ، والصراع من أجلها والتعلق بما لا يمكن إدراكه فيها ، فمهما يكن من شئ فإن الآجال قصيرة، وكل يوم يمر على الإنسان ينقص من عمره ، ويدنيه من أجله المحتوم . فيقول [١] :

أللعمر فى الدنيا تجدُّ وتعمر ... وأنت غداً فيها تموت وتقبر
تلقح آمالاً وترجوا نتاجها ... وعمرك مما قد ترجيه أقصر
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه ... وليلته تنعاك إن كنت تشعر

ولما كان صراع الإنسان فى الحياة يدور فى الغالب حول تحصيل الرزق ، والتنافس ، فيه فإن الشاعر يذكر نفسه ، وغيره أن الرزاق تعالى قد كفل لعباده الرزق معجلاً ، أو مؤجلاً ، لذا فإنه لا تنفع حيلة محتال فى جلب الرزق ، أورده ، فكل الأمور مقدرة بيدالله يبسط الرزق لعباده كيف يشاء بعدله وكرمه . يقول :

---

(١) الديوان : ٢ / ٤٦٠ .

ورزقك لا يعدوك إما معجل ... على حاله يوماً وإما مؤخر
ولا حول محتال ولا وجه مذهب ... ولا قدر يزجيه إلا المقدر
لقد قدر الأرزاق من ليس عادلا ... عن العدل بين الناس فيما يقدر

وتتواصل وصايا الشاعر ، وتتعدد موضوعاتها ، وكأنه ينظر من خلال نفسه إلى مواطن التقصير ، فهو هنا يخاطب من أقبلت عليهم الدنيا بزخارفها ، وفتنتهم بمباهجها ، يحذرهم من الركون إليها ، والاطمئنان لها، فهى إذا ما أقبلت سرعان ما تدبر ، وإذا ما صفت أعقبت صفوها كدرا ، وإذا ما انقضى يوم قربت العمر من نهاية الأجل ، وكأن أبا تمام يذكر بقول الله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ } (لقمان : ٣٣) وفى ذلك يقول [١] :

فلا تأمن الدنيا إذا هى أقبلت ... عليك فما زالت تخون وتدبر
فما تم فيها الصفو يوماً لأهله ... ولا الرفق إلا ريثما يتغير
وما لاح نجم ولاذر شارق ... على الخلق إلا حبل عمرك يقصر

وتأتى الفكرة الأخيرة فى القصيدة بمثابة الدواء الناجع ، لكل من قعدت به همته ، عن الإيمان الخالص ، والعمل الصالح ، لعله يجد فى هذا الدواء ما يتطهر به من ذنوبه ، ويجدد توبته ، ويحسن خاتمته :

تَطهَّر وألحِق ذنبك اليوم توبةً ... لعلك منه إن تطهرت تطهر
وَشمِّر فقد أبدى لك الموت وجهَه ... وليس ينال الفوزَ إلا المشمر

---

(١) الديوان : ٢ / ٤٦٠ .

فهـذا الليـالى مؤذناتـك بـالبلى تـروح وأيـام بـذلك تنكـر
وأخلـص بـذا لله صـدراً ونيـة فإن الـذى تخفيـه يومـا سـيظهر
وقد يستر الإنسـان بـاللفظ فعلـه فيظهر منه الطرف ما كـان يسـتر
تذكَّر وفكِّر فى الذى أنـت صـائر إليه غـداً إن كنـت ممـن يفكـر
فلابـد يومـاً أن تصـير لحفـرة بأثنائها تطـوى إلـى يـوم تنشـر

ما أروع الدواء ، وما أعظمه ، لكل من يبحث عن وسيلة للرجوع إلى الله . وقد كان أبو تمام موفقاً ، حين بدأ بقوله (تطهر) ، ذلك أن العبد إذا ما تطهر فإنه بذلك يكون قد نوى الدخول فى الأعمال الصالحة إذ لا صلاة ، ولا صيام ، ولا حج بغير تطهر .

كذلك فإن الطهارة غير قاصرة على الأفعال الحسية ، فطهارة القلب، وطهارة اللسان وطهارة شتى الجوارح مطلب شرعى للدخول فى كل عمل صالح ، ثم إنه أعقب التطهر بقوله (ألحق ذنبك اليوم توبة) فالتوبة الصادقة دليل على الرجوع إلى الله ، ولعل قوله (اليوم) يفيد سرعة المبادرة وعدم التسويف فى التوبة .

وتأتى ثمرة التوبة واقعاً فعلياً ، حين يستعد العبد للموت ، فيخلص فى كل عمل يعمله ، ظاهراً كان أو خفياً ، ومهما أوتى العبد من قدرة على التمويه ، وإخفاء الحقيقة عن الناس ، فإنه لا محالة سينكشف أمره وتظهر حقيقته ، ومن ثم يجب على كل إنسان أن يفكر فيما سيؤول إليه حيث يلقى فى حفرة صغيرة ، حتى يخرج منها لملاقاة حسابه .

لا شك أننا هنا أمام أبى تمام الواعظ المرشد ، ذى القلب المرتجف ، تبعده ذنوبه من الله ، ويدنيه إليه طمعه ورجاؤه ، يؤمن أن متاع الدنيا ظل زائل ، وأمل مفقود ، وأن لكل واحد أجلاً محتوماً ، ومن

ثم فلا نجاة إلا بالرجوع إلى الله ، ولزوم طاعته بالتوبة من الآثام ، والإخلاص فى العمل ، فلعل ذلك كله يشفع للعبد عند ربه تعالى .

وبعد ...

هذه هى موضوعات شعر أبى تمام فى ظل تأثرها بالإسلام وثقافته، وقد كان القرآن الكريم من أكثر الروافد التى أمدتها بالمعانى والأفكار ، وقد بأن لنا كيف استقى من القرآن الكريم ما يخدم غرضه ، فهو ما بين مقتبس للآيات القرآنية ، يوردها بهيئتها ، أو يقدم ويؤخر فيها تبعاً لما يتطلبه الوزن والقافية ، وبين مورد لمعنى الآيات القرآنية ، بما يتشابه مع موضوعه ، وقد يعمد إلى الإشارة الموجزة ، التى توحى بمعنى الآية القرآنية ، ولا يختلف الحال كثيراً فى تأثره بالحديث الشريف، إذ رأيناه يعمد إلى بعض ألفاظ الحديث ذات الدلالة المقصودة لديه ، وقد يوحى كلامه بمعنى الحديث .

وإضافة إلى هذين الرافدين ، فقد رأيناه يستقى من الثقافة الإسلامية العامة كثيراً من المعانى والأفكار ، على نحو ما عرضنا له فى هذا الباب .

الفصل الثانى

أثر الإسلام فى العاطفة

لعل أبرز ما يميز أدباً عن أدب ، وأديباً عن أديب مقدار ما توافر لهذا الأدب ، أو لذاك الأديب من عاطفة ، تعكس إيمانه بما يعبر عنه ذلك أن الأدب الذى يتجرد من العاطفة هو أدب مزيف مصطنع ، ليس فيه سوى عبارات مرصوصة ، وجمل مصفوفة .

وهو وإن سحر العيون بزخارفه ، وفتنها ببهارجه ، فليس له مكان فى القلب ، ولا منزلة من النفس ، وكيف لا وهو لا يحرك ساكناً ، ولا يستثير مشاعرا ؟

ومما لا شك فيه أنه لا قيمة لشعر ما لم يؤثر فى النفوس ، ويثير المشاعر ، والأحاسيس ، ولن يصل شاعر بشعره إلى تلك المنزلة ، ما لم يصدر شعره عن عاطفة فياضة ، وإيمان صادق بما يعبر عنه .

ومن ثم فإن قوة الشعر صدى للعواطف الصادقة ، ونتيجة للتجارب التامة ، والإيمان المطلق بما يعبر عنه الشاعر . وقد أدرك النقاد القدامى دور العاطفة فى الأدب ، فأولوها عنايتهم ، ونصحوا الأدباء بضرورة صدور أدبهم عن إحساس صادق ، ومعايشة تامة للحدث ، حتى ينعكس ذلك على العمل الأدبى شعراً كان أو نثرا .

ومما لا شك فيه – أيضا – أن قوة العاطفة صدى لإيمان المبدع بما يعبر عنه ، ولا تتضح هذه القوة إلا بمقدار ما تثيره من أحاسيس فى نفوس المتلقين ، وبمقدار ثباتها فى النص كله .

وبعد : فهل كان شعر أبى تمام فى الموضوعات الإسلامية صدى لإيمانه العميق بما يعبر عنه ، وانعكاسا لعاطفته ، أم كان زيفاً واصطناعاً وقدرةً فنية ؟

الحقيقة أننا أكدنا منذ البداية أن أبا تمام معتز بإسلامه ، فخور بأمته، منافح عنه وعنها بكل ما أوتى من قوة ، ومن ثم فلا يدور بخلد واحد أن ما يعبر عنه فى الجوانب الإسلامية من شعره زيف أو اصطناع ، إنما هو أحاسيس صادقة ، وعواطف نبيلة ، جسدها شعره حتى صار جزء من شخصيته ، ورمزاً لاعتقاده .

والذى يجعلنى أؤكد صدقه فيما عنه من معان إسلامية ،وأنه صادر عن عاطفة صادقة – إضافة إلى ما ذكرت من أسباب – أن أبا تمام لم يكن مضطراً لهذا الصنيع ، ولا مطالباً به ، فعصره عصر يموج بالفتن ، وتكثر فيه الملل والنحل ، إضافة إلى ما أفرزه اختلاط العرب بغيرهم من الأمم ، وظهور أثر ذلك على عادات العرب وتقاليدهم ، وقد أصبح المجتمع ينعم بمزيد من الحريات ، فى شتى ممارسات حياته .

كان أبو تمام قادراً على التحلل والتملق ، وكان أيضا قادراً على أن يكون فى صف هؤلاء الشعراء الخارجين المارقين . لكنه آثر هذا الاتجاه ، لإيمانه به ، وعقيدته فيه ، ومن ثم فلا نملك سوى التسليم بصدق عاطفته فى أشعاره الإسلامية .

وإذا كانت العاطفة تقاس بمقدار ما تعكسه من أصداء على المتلقين فحسبنا قراءة شعره وإذا كان ثباتها فى النص كله دليلاً على المعايشة الصادقة ، فلا نملك إلا أن نتوجه نحو شعره مرة ثانية ، نستجلى أثر عاطفته فيه .

يقول أبو تمام فى مدح المأمون والإشادة بمثالية خلافته :

الله أكبر جاء أكبر من جرت ... فتحيرت فى كنهه الأوهام
من لا يحيط الواصفون بقدره ... حتى يقولوا قدره إلهام
من شرد الإعدام عن أوطانه ... بالبذل حتى استطرف الإعدام
وتكفل الأيتام عن آبائهم ... حتى وددنا أننا أيتام
مستسلم لله سائس أمه ... لذوى تجهضمها له استسلام
يتجنب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناته آثام
يا أيها الملك الهمام وعدله ... ملك عليه فى القضاء همام
ما زال حكم الله يشرق وجهه ... فى الأرض مذ نيطت بك الأحكام

جاءت هذه الأبيات تالية للمطلع الغزلى من القصيدة ، وفيها يرسم الشاعر الصورة المثالية للخليفة المسلم ، وقد دفعه إعجابه الشديد بالمأمون إلى تتبع صفاته ، ورصد تصرفاته ، وقد قادته عاطفته إلى هذا اللحن الهادر ، الذى نلحظه من أول جملة فى الأبيات (الله أكبر) ومن تلك الصفات المتتابعة المنسجمة ، فالمعتصم لا يحيط الواصفون بقدره ، وهو من شرد الإعدام ، ومن تكفل الأيتام ، ومن استسلم لله ، وتجنب الآثام ، ونشر فى الأرض العدل والسلام ، ومن أشرقت به فى الأرض الأحكام .

وتتسامى عاطفة الشاعر ، ويزداد انفعالها ، ولا تهدأ جذوتها وهو يرى المأمون يقود الجيوش أمام جحافل الكفر ، الذين احتقروا الإسلام وامتهنوا المسلمين ، ففرَّق صفوفهم ، وشتَّت جموعهم ، حتى لم يبق لهم باقية .

لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى ... أسرجن فكرك والبلاد ظلام

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام
حتى نفضت الروم منك بوقعة شنعاء ليس لنقضها إبرام

لقد سرت عاطفة الشاعر فى القصيدة كلها ، على نسق واحد من القوة والثبات ، ولا أدل على ذلك من تلك الأحاسيس التى جعلها تتغلغل داخل كيان كل مسلم غيور على دينه ، وهو يرى المسلمين وقد أذلهم أهل الكفر ، وامتهنوا كرامتهم ، وحطوا من شأنهم ، ثم إنه بقدر ما أثار شجوننا بما أصاب المسلمين ، يعود فيبدل الذل عزا ، والخوف أمنا ، والامتهان كرامة ، حين اتخذ الخليفة قراره ، وبيت رأيه وقاد الجيوش بنفسه جهاداً فى سبيل الله ، وعزة للإسلام والمسلمين ، مما جعلنا نردد معه جميعاً ذلك النشيد الجميل ، واللحن الرائع ، الذى يشيد بمثالية الخليفة فى الدفاع عن الدين ، وعن رعيته أينما كانوا ، وحيثما حلوا .

لقد انعكست عاطفة الشاعر ، وبان صدقها فى كل عناصر بناء القصيدة ، فالألفاظ قد حسن اختيارها ، والمعانى قد اتضح مرادها ، وظهر عمقها ، والصورة قد أصابت هدفها ، وتآزرت كل العناصر فى أداء دورها مما يؤكد المعايشة الصادقة للحدث ، الأمر الذى جعلنا نشارك الشاعر فرحته ، ونشيد معه ببطولة المأمون . وكأن الحدث ماثل أمام أعيننا .

ومما يؤكد صدق عاطفة أبى تمام ، وانفعاله بما يعبر عنه ، وإيمانه به ، وبخاصة فى الموضوعات الإسلامية موقفه من الأفشين ، ذلك الرجل الذى أشاد به فى أكثر من قصيدة ، خلدت بطولته وأشادت بانتصاراته وفتوحاته ، لما كان قائداً لجيوش الخليفة ، لكن حين خرج الأفشين عن الملة ، وأظهر ما كان يكن من عداوة للإسلام ، وسوء طوية وذمة ، لم تكن لتشفع له انتصاراته ، ولا كثرة فتوحاته ، لا عند الخليفة ، ولا عند أبى تمام ، أما الخليفة فقد أمر بصلبه وإحراقه ، وأما أبو تمام فقد عبر عن

موقفه ، بأن عزف أحلى ألحانه ، وأروع قصائده ، مصوراً ذلك الحدث بعواطفه المتقدة ، وبفكره البصير ، الأمر الذى أعانه على تتبع القصة منذ ميلادها ، وصولاً بها إلى نهايتها . نظم أبو تمام رائعته الرائية فى مدح المعتصم وذكر أمر الأفشين ، وقد بلغت أبياتها واحداً وستين بيتاً ، تسرى فيها عاطفة واحدة قوية ، مبعثها تصوير كفران الأفشين بالإسلام ، ونقضه للعهود ، وغدره وخيانته من جهة ، ثم الإشادة بالمعتصم وقد خلص المسلمين من خطر هذا الخارج ، بأن صلبه ، وأحرقه من جهة ثانية .

ولا ينسى أبو تمام فى أثناء عرض هذه الأحداث ، أن يتكأ على ثقافته الإسلامية فى التماس الأدلة ، التى توجب قتل المرتد ، كما لجأ إلى السيرة النبوية يستمد منها ما يدل على أن الغدر والخيانة ، وأن أمثال الأفشين موجودون فى كل زمان ومكان .

وقد دلل على ذلك بموقف عبدالله بن أبى السرح ، كاتب الوحى للنبى ﷺ ، الذى كان يغير ما كان يملى عليه ، حتى كشف الله أمره وهتك سرته .

ولا شك أن هذا التدليل يعكس ثقافة الشاعر الإسلامية من جهة ويثير فينا ثورة الغضب على أمثال هؤلاء من جهة أخرى .

وقد بدأ أبو تمام القصيدة بالتحذير لكل من تسول له نفسه الخروج عن الملة، أو العصيان للخليفة، فهناك أسد يتربص بمثل هؤلاء فيقول[1] :

الحـــق ابلـــج والســـيوف عـــوار فحذار مـــن أســـد العـــرين حـــذار

---

(١) الديوان ١ / ٣٣٥ .

ثم ينفعل الشاعر ، ويعلن عن سخطه على الأفشين ، فيضع أمام المتلقى تجسيداً لهذا الخارج من خلال وصف أفعاله التى تخالف الإسلام.

جالت بخيذر جولة المقدار ... فأحله الطغيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها فى غربة وإسار
كسيت سبائبُ لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء فى الأطمار
موتورة طلب الإله بثأرها ... وكفى برب الثأر مدرك ثار
صادى أمير المؤمنين بزبرج ... فى طيه حمة الشجاع الضارى
مكراً بنى ركنيه إلا أنه ... وطد الأساس على شفير هار
حتى إذا ما الله شق ضميره ... عن مستكن الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انتنى ... والحق منه قانئ الأظفار

وإذا كان من مقاييس صدق العاطفة ، وقوتها تسلسل الأحداث تسلسلاً منطقياً ، دليلاً على معايشة الشاعر للحدث ، وإلمامه به ، فما اروع تسلسل الأحداث فى تلك القصيدة ، وما أعظم تناغمها وانسجامها ، فبعد أن أعلن الشاعر عن خيانة الأفشيين للمعتصم ، يدرأ عن المعتصم غفلته ، ويبرر خداعه ، متخذاً من موقف ابن أبى السرح مع النبى ﷺ ما يهون به عليه .

هذا النبى وكان صفوة ربه ... من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة ... وهم أشد أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى ... سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى ... رفعت له سجفا عن الأسرار

إذن لم يكن خداع المعتصم بدعة ، فمن قلبه ما كان من ابن أبى السرح مع النبى ﷺ ، ولا شك أن التذكير بمثل تلك المواقف توحى

بعاطفة الشاعر النبيلة ، وبحبه الشديد للمعتصم ، ومدافعته عن الإسلام والمسلمين .

ثم تأتى النتيجة ، وفيها يزداد انفعال الشاعر العاطفى بالمشهد الذى قرت له عينه ، وطابت به نفسه ، فها هو الأفشين يجنى ثمرة كفره وعقوبة جرمه ، مصلوباً محروقاً .

لقد استطاع أبو تمام أن يجعلنا نفرح معه ، برؤية الأفشين وقد مزقت النيران أوصاله ، ونستطيب رائحته ، وقد فاح قتاره ، مما يدل على صدقه فى عاطفته :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سِرَّ الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرها ... لهباً كما عصفرت شق إزار
طارت لها شعل يهدم لفحها ... أركانه هدما بغير غبار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حيا وكان وقودها ... ميتا ويدخلها مع الفجار
فَصَلَن منه كل مجمع مفصل ... وفعلن فاقرة بكل فقار
وكذاك أهل النار فى الدنيا هم ... يوم القيامة جل أهل النار
يا مشهداً صدرت بفرحته إلى ... أمصارها القصوى بنو الأمصار
رمقوا أعالى جذعه فكأنما ... وجدوا الهلال عشية الإفطار
واستنشأوا منه قُتاراً نشره ... من عنبر زفر ومسك دار
وتحدثوا عن هلكه كحديث من ... بالبدو عن متتابع الأمطار
وتباشروا كتباشر الحرمين فى ... قحم السنين بأرخص الأسعار
كانت شماتة شامت عاراً فقد ... صارت به تنضو ثياب العار

لا شك أن هذه الدقة فى الوصف ، والتتبع للحدث ، ناشئ عن الصدق العاطفى ، الذى عاناه الشاعر ، ومن ثم نجد أنفسنا مأخوذين

بروعة المعنى ، ودقة التصوير ، ومنطقية الفكر ، وعلى هذا النسق العاطفى تسير بقية القصيدة فى معالجة أفكارها .

ومما ينبغى الإشارة إليه ، أن عاطفة أبى تمام الدينية والقومية تكاد تبرز فى كل قصيدة تغنى فيها بأمجاد الإسلام ، وابتهج بالنصر على قوى الظلم والطغيان .

وليس بخاف قصيدته فى فتح عمورية ، التى تعد من أروع الملاحم الإسلامية حيث سجلت انتصار المسلمين العظيم على الروم ، وما حققته من عزة وكرامة ومكانة للمسلمين ، وفيها تتدفق عاطفة الشاعر كالشلال الهادر ، مأخوذاً بروعة الظفر ، ونصرة الدين ، وبطولة الخليفة ، وحسبنا قوله [1] :

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

ولم تكن عاطفة أبى تمام صادقة فى الموضوعات الإسلامية العامة فحسب ، كمدح مثالية الخليفة ، أو الإشادة بالمجاهدين من أجل رفعة الدين أو ذم الخارجين عن حومة الإسلام أو جماعة المسلمين ، إنما يتجلى صدق عاطفته – أيضاً – فى التعبير عن مواقفه الخاصة التى تعكس إيمانه بالله ، ورضاه بقدره ، وتسليمه بقضائه .

---

(١) الديوان : ١ / ٤٨ .

يموت له أبناؤه ، وأخوته ، فلا يجزع ولا يعترض ، إنما يصبر ، ويتجلد ، ويعظ غيره ، وينصح :

لا يشمت الأعـداء بـالموت إننـا ... سنخلى لهم من عرصة الموت موردا
ولا تحسبن المـوت عـارا فإننـا ... رأينـا المنايـا قـد أصـبن محمـدا
ولا يحسب الأعـداء أن مصـيبتى ... أكلـت لهـم منـى لسـانا ولا يـدا
تتابع فـى عـام بنـى وأخـونى ... فاصبحت إن لـم يخلـف الله واحـدا

إن من يقرأ هذه الأبيات ليجد فيها صوتاً ينبعث من رجل ، وكأنه لم يصبه القدر فى أبنائه ، أو لم يحرمه عشرة إخوانه ، وما ذاك إلا لأن عاطفته فى الأبيات تبدو هادئة رزينة ، غير صاخبة ، ولا غاضبة ، إنما هى مستسلمة راضية ، وحتى ليسأل السائل نفسه ، ألم يكن أبناء أبى تمام وأخوته أعزاء لديه ، حتى تأتى هذه الأبيات على هذا النسق من العاطفة الهادئة ، والانفعال الرقيق ؟

الحقيقة أن من يظن ذلك قد قصر به فكره ، فلا شك أن إيمان أبى تمام الراسخ ، وحسن عقيدته السليمة ، قد انعكس على الموقف ، فايقن أن الموت قدر مقدر ، فكان الرضا ، وأن الله هو المخلف المقدر ، فكان التجلد والتصبر ، ومن ثم تجاوبت عاطفة الشاعر مع عقيدته ، وانسجمت مع فكره ، فكان هذا اللحن الحزين ، المنسجم مع تعاليم الإسلام وقيمه .

هذه نماذج من موضوعات شعر أبى تمام الإسلامية ، وهى وإن كان قد اختلف موضوعها فقد اتسمت جميعها بقوة العاطفة ، وثباتها فى النص كله ، وانسجامها وملاءمتها لطبيعة الموضوع الذى يعالجه ، وهى فى ذات الوقت تعكس صدق الشاعر فى مشاعره ، وتلبسه التام بالمثير حتى جاء أثر ذلك جلياً ، على ألفاظ القصائد ومعانيها ، وصورها وأخيلتها ، وموسيقاها .

الباب الثانى

أثر الإسلام فى أدوات التعبير ووسائل التصوير

الفصل الأول

أثر الإسلام فى الألفاظ والتراكيب

من المسلم به أن الألفاظ هى المادة المعبرة عن أحاسيس الشعراء، يكشفون من خلالها عما يعتمل فى صدورهم ، ويهتكون ستر ما استقر فى ضمائرهم ، ومن ثم فهم يحرصون على اختيار اللغة الملائمة لطبيعة موضوعاتهم ، والمنسجمة مع حالاتهم النفسية ، إذ أن لكل غرض من أغراض الشعر ما يناسبه من الألفاظ (فالشاعر إذا أراد بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره ، وأعَّدله ما يلبسه إياه من الألفاظ ، التى تطابقه فى ذلك ، لأن لكل معنى لفظا يليق به) [1] .

ومن المسلم به أيضاً أن لغة الشعر الجاهلى هى صدى لطبيعة بيئتهم : بأرضها وسمائها ، وعادتها ، وتقاليدها ، ومن ثم كانت السمة الغالبة على تلك اللغة شيئاً من القسوة والخشونة ، والغرابة والتعقيد .

وحين أظل العرب نور الإسلام ، لم يكن ليغير فى معتقداتهم ، أو ليبدل فى تقاليدهم وعاداتهم فحسب ، إنما تجاوز ذلك إلى تفكيرهم ، ولغتهم ذلك أن القرآن الكريم حين نزل على العرب هالتهم فصاحته ، وأعجزهم بيانه ، وبهرتهم بلاغته ، فوقفوا أمامه عاجزين ، وهم أرباب الفصاحة ، وأساطين البيان ، وأقدر الناس على الشعر ، والحكم ، ومن هنا راح

---

(١) عيار الشعر ابن طباطبا ص ٥ .

الشعراء يغترفون من منهله ، ويردون مورده ، وانعكس كل ذلك على لغتهم وأدبهم ، فشاعت ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه فى الشعر، وتعددت أساليبه فى البيان ، وهجر الشعراء كثيراً من الألفظ الجاهلية الحوشية والغريبة ، بعد أن وجدوا فى القرآن الكريم ما سحر عقولهم واستهوى أنفسهم ، كذلك قد غدا النبى ﷺ أحب الناس إليهم ، بل أحب إليهم من أنفسهم ، وقد دفعهم هذا الحب إلى الإقتداء به ، والسير على منهاجه فتأثروا بأحاديثه وبكلامه ، وكلام النبى ﷺ كما يقول الجاحظ : (لم يسبق إليه عربى ، ولم يشاركه عجمى ، ولم يدع لأحد ، ولا ادعاه أحد مما صار مستعملا ، ومن هنا كثر الاقتباس من الأحاديث النبوية ألفاظاً ، وأساليب ومعانى ، وأفكارا) [1] .

وأبو تمام واحد من الشعراء الذين انعكست عليهم الثقافة الإسلامية بشتى روافدها ، ولاسيما القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف .

ولا أظن أن التأكيد على ذلك يتطلب جهداً ، أو بحثاً وتنقيباً فى شعره ، ذلك أن من يتتبع شعره ، يجده زاخراً بالألفاظ والتعابير الإسلامية سواء تلك التى وقع عليها من القرآن الكريم ، أو من السنة النبوية ، أو تلك التى هى من إبداع ثقافة العصر الإسلامية .

ففى مجال تأثره بالمفردات والتراكيب اللغوية الإسلامية ، يرد اسم الله تعالى فى كثير من المواضع ، نجد ذلك فى قوله [2] :

جعل الخلافة فيه رب قوله سبحانه للشئ كن فيكون

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١ / ١٤٥ .
(٢) الديوان ٢ / ١٦٥ .

فقوله (رب ، وسبحانه) مما هو شائع فى القاموس اللغوى الإسلامى ، كذلك قوله (كن فيكن) تعبير قرآنى ، رمز به الشاعر إلى إرادة الله فى جعل الخلافة فى الواثق .

وقد يرد لفظ الجلالة دلالة على قدرة الله ، وتمكنه ، وبسط إرادته، ومن ثم فإن الممدوح يستمد من هذا الإله القادر العون ، والمدد فى مجابهة أعداء الإسلام نجد مثل ذلك فى قوله [1] :

تـــدبير معتصـــم بـــالله منـــتقم ... لله مرتقـــب فـــى الله مرتغـــب
رمـــى بـــك الله برجيهـــا فهـــدمها ... ولو رمى بك غير الله لـــم يصـــب
تتـــابع فـــى عـــام بنـــى وأخـــوتى ... فاصبحت إن لم يخلـــف الله واحـــدا
حتـــى إذا مـــا الله شَـــقَّ ضـــميره ... عـــن مســـتكن الكفـــر والإصـــرار
فقد يأجر الله الفتـــى وهـــو كـــاره ... وما الأجر إلا أجـــره وهـــو طـــائع

وقد يأتى لفظ الجلالة مضافاً إلى معنى من المعانى الإسلامية : كالسبيل ، والسلام ، والخلافة ، تأكيداً على قيمة المضاف، وبياناً لعظمته .

نجد مثل ذلك فى قوله [2] :

ألا فى سبيل الله مـــن عطلـــت لـــه ... فجـــاج ســـبيل الله وانثغـــر الثغـــر
عليـــك ســـلام الله وقفـــاً فـــإننى ... رأيت الكريم الحر ليس لـــه عمـــر
خليفة الله جازى الله ســـعيك عـــن ... جرثومة الدين والإســـلام والحســـب

ومن الألفاظ التى استحدثها الإسلام ، وترددت كثيراً فى شعر أبى تمام : (الإسلام ، الإيمان الكفر ، الضلال ، التوحيد ، الاشراك ، النبى

---

(١) الديوان : ١ / ٤١ ، ٢ / ٢١٢ ، ١ / ٣٣٦ ، ٢ / ٢٢١.
(٢) الديوان : ٢ / ٢١٨ ، ١ / ٤٨ .

الرسول ، النبوة ، الوحى ، الكتاب ، السنة وغيرها . يقول فى أكثر من موضع فى شعره (١)

رهط الرسول الذى تقطع أسبا ... ب البرايا غداً سوى سببه
مهذب قُدَّت النبوة والإسلا ... م قد الشراك من نسبه

فقوله : الرسول ، والنبوة ، والإسلام ألفاظ ما عرفها المتحدثون باللغة إلا بعد ظهور الإسلام ويقول (٢) :

- لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تغطرس وعرام
- هذا النبى وكان صفوة ربه ... من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة ... وهم أشد أذى من الكفار
- وعر الدين بالجلاد ولكن ... وعور العدو صارت سهوبا
ودروب الاشراك صارت فضاءً ... وفضاء الإسلام يدعى دروبا
- حرم الدين زاره بعد أن لم ... يبق للكفر والضلال حريما
حين عفى مقام إبليس سامى ... بالمطايا مقام إبراهيما

لا شك أن معجم الشاعر اللغوى قد اتكأ فى الأبيات السابقة وغيرها على الذخيرة اللغوية ، التى فجرها الإسلام قرآنا وسنة ، ومن ثم نرى الشاعر يرصد عدداً من المصطلحات الإسلامية الجديدة : كالدين ، والكفر فى البيت الأول ،والنفاق ، والكفر فى الثانى .

والإسلام والإشراك ، والكفر والضلال ، ومقام إبليس، ومقام إبراهيم فى الثالث والرابع ، ولا شك أن هذه المصطلحات تحمل من

---

(١) السابق : ١ / ١٤٧ .
(٢) الديوان : ٢ / ٤٧ ، ١ / ٣٣٦ ، ١ / ٩٥ ، ٢ / ١١٢ .

الدلالات الخاصة ، التى وظفها الشاعر فى خدمة موضوعه ، على نحو ما مر بنا فى الباب الأول .

ومن تلك الألفاظ والتراكيب الإسلامية الشائعة فى شعر أبى تمام ما نجده فى قوله [1] :

هـارون يـا خيـر مـن يُرَجَّـى ... لـم يطـع الله مـن عصـاك
لـو كـان بعـد النبـى وَحْـىٌ ... إلـى وَلِـىٍّ لكنـت ذاكـا

فطاعة الله ، والنبى ، والوحى ، والولى ، ألفاظ تشع منها أنوار الإسلام وتتلألأ فيها قيمه ، وليس بخاف ما تحمله من دلالات ، أسبغها الشاعر على ممدوحه . ومنه أيضا قوله [2] :

لك فى رسـول الله أعظـم أسـوة ... وأجلهـا فـى سـنة وكتـاب

(فرسول الله) مصطلح إسلامى ، والسنة والكتاب لفظان إسلاميان وكذلك قوله [3] :

- مثل الصلاة إذا أقيمت أصـلحت ... مـا قبلهـا مـن سـائر الأعمـال
- لو رأينا التوكيـد خطـة عجـز ... مـا شـفعنا الأذان بالتثويـب

كما تشيع ألفاظ : الحساب ، والعقاب ، والجنة ، والنار ، والبعث والحشر ، بما تحمل هذه الألفاظ من دلالات خاصة ، تعكس إدراك وإيمان أبى تمام بخصائص هذه المفردات .

---

(١)
(٢) انظر الديوان : ١ / ٤٧٠ ، ١ / ٥٥ ، ٢ / ٦٣ ، ١ / ٧٧ ، ٢ / ٣١٨ .
(٣) انظر الديوان : ١ / ٤٧٠ ، ١ / ٥٥ ، ٢ / ٦٣ ، ١ / ٧٧ ، ٢ / ٣١٨ .

يقول واصفاً حال الروم ، وقد مزق المسلمون جيوشهم ، وفرقوا جموعهم ، وأصابوا بالفوضى صفوفهم [1] :

فكأن يوم البعث فاجأهم فلا أحساب بينهم ولا أنساب

وفى موضع آخر يقول راجياً [2] :

فيا ليتنى من بعد موتى ومبعثى أكون رفاتا لا على ولا ليا

ويقول [3] :

فلابد يوما أن تصير لحفرة بأثنائها تطوى إلى يوم تنشر

وحين أحاط المسلمون بجيش البذ من كل جانب ، يلهمه القاموس الاسلامى باللفظة المناسبة ، التى تحكى حال العدو ، وتعكس قوة المسلمين ومن هنا كانت لفظة جهنم اللفظة المناسبة فى قوله [4] :

كأن جهنم انضمت عليهم كلاها غير تبديل الجلود

ولعل قوله (غير تبديل الجلود) يعكس ثقافته أبى تمام الإسلامية، فهو يدرك أن تبديل الجلود عقاب من اله لمن كفر بآياته ، مصداقا لقوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا } (النساء : ٥٦)

---

(١) انظر الديوان : ١ / ٤٧٠ ، ١ / ٥٥ ، ٢ / ٦٣ ، ١ / ٧٧ ، ٢ / ٣١٨ .
(٢) انظر الديوان ٢ / ٤٦٣ ، ٢ / ٤٦٠ ، ١ / ٢٥٤ ، ٢ / ٤٩ ، ٢ / ٦٣ .
(٣) انظر الديوان ٢ / ٤٦٣ ، ٢ / ٤٦٠ ، ١ / ٢٥٤ ، ٢ / ٤٩ ، ٢ / ٦٣ .
(٤) انظر الديوان ٢ / ٤٦٣ ، ٢ / ٤٦٠ ، ١ / ٢٥٤ ، ٢ / ٤٩ ، ٢ / ٦٣ .

كذلك تشيع فى لغة أبى تمام الألفاظ ، والتراكيب الإسلامية المستحدثة ، والتى كانت استجابة لبعض العلوم الشرعية : كالفقه والحديث ، كما فى قوله [1] :

فـــواللهِ لا آتيـــك إلا فريضـــة وآتـــى جميـــع النـــاس إلا تـــنفلا

فالفريضة والنفل من ألفاظ أهل الفقه ، وكذلك السهو ، والصلاة فى قوله [2] :

مســـتيقناً أن ســـوف يمحـــو قتلـــه ما كان مـــن ســـهو ومـــن إغفـــال
مثل الصـــلاة إذا أقيمـــت أصـــلحت مـــا قبلهـــا مـــن ســـائر الأعمـــال

ومن هذه المصطلحات ما نجده فى قصيدته ، التى مدح بها (أبا سعيد محمد بن يوسف) لما تَوجّه إلى مكة حاجاً ، حيث يقول فيها [3] :

حُطَّت إلى عمـــدة الإســـلام أرحلـــه والشمس قد نفضت ورسا على الأصل
مُلبيّـــاً طالمـــا لبـــى مناديـــه إلى الوغى غيـــر رعديـــد ولا وكـــل
ومُحرِماً أحرمت أرض العراق لـــه من الندى واكتست ثوبـــاً مـــن البخـــل
وسافكاً لـــدماء البُـــدن قـــد ســـفكت بـــه دمـــاء ذوى الإلحـــاد والنحـــل
ورامياً جمَرات الحـــج فـــى ســـنة رمى بها جمـــرات اليـــوم ذى الشـــعل
يردى ويَرقِل نحو المـــروتين كمـــا يُردِى ويُرقل نحـــو الفـــارس البطـــل
تَقبّل الـــركن ركـــن البيـــت نافلـــة وظهـــر كفـــك معمـــور مـــن القبـــل
لما تركـــت بيـــوت الكفـــر خاويـــة بـــالغزو آثـــرت بيـــت الله بالقفـــل

---

(١) أنظر الديوان ٢ / ٤٦٣ ، ٢ / ٤٦٠ ، ١ / ٢٥٤ ، ٢ / ٤٩ ، ٢ / ٦٣ .
(٢) أنظر الديوان ٢ / ٤٦٣ ، ٢ / ٤٦٠ ، ١ / ٢٥٤ ، ٢ / ٤٩ ، ٢ / ٦٣ .
(٣) الديوان : ٢ / ٤٥ .

فالتلبية ، والإحرام ، وسفك دماء البدن ، ورمى الجمرات ، وتقبيل الركن ، وقصد بيت الله الحرام ، كلها تعابير وليدة البيئة الإسلامية ، وقع عليها الشاعر ، لما كان عارفا بمعانيها ملماً بدلالاتها ، وهى ترجع فى الغالب إلى ألفاظ الفقهاء .

ومن التعابير الإسلامية المستحدثة ، التى تأثرها أبو تمام ، ألفاظ الحكم والخلافة كقوله [1] :

- جعل الخلافة فيه رب قوله سبحانه للشئ كن فيكون
- لاذت بحقويه الخلافة والتقت على خدرها أرماحه ومناصله
- أعطى أمير المؤمنين سيوفه فيه الرضا وحكومة المقتال

فقيادة المسلمين خلافة من الله ، وقائدهم خليفة الله ، وهكذا .

وقد تكون للفظة ، أو للتعبير الإسلامى دلالة خاصة ، مما يجعل الشاعر يلجأ إلى استعمالها تشبيها بالموقف ، وإيحاءً بالمعنى ، ولعل قوله فى مدح الواثق ، ووصف مبايعة الرعية له ما يدل على ذلك ، حيث يقول[2] :

هى بيعة الرضوان يشرع وسطها باب السلامة فادخلوا بسلام

فبيعة الرضوان تعبير ، يحمل من الدلالات الإسلامية ، ما يُذَكِّرُ بموقف صحابة النبى ﷺ حين بايعوه على الوقوف بجانبه ، ضد صناديد الكفر من قريش، فمدحهم الله، وأثنى عليهم. وكذلك لا تخفى دلالة التركيب

---

(١) الديوان : ٢ / ١٦٥ ، ٢ / ١٤ ، ٢ / ٦٣ .
(٢) السابق : ٢ / ١٠٢ .

(فادخلوا بسلام) وما يوحى به من سكينة ، وحسن قرار ، وكأن خلافة الوائق تشبه الجنة فى أمنها وأمانها ، وما أعد لهم .

ولنقرأ أيضاً قوله يخاطب ممدوحه [1] :

لك فى رسول الله أعظم أسوة وأجلُّها فى سُنَّةٍ وكتاب
أعطى المؤلَّفةَ القلوبَ رضاَهم كرماً وردَّ أخايذَ الأحزاب

(فالمؤلفة قلوبهم) تعبير إسلامى ، يعنى أولئك الذين دخلوا فى الإسلام طمعاً فى الغنائم ، أو هم ضعفاء النفوس ، ممن كانوا يريدون الحصول على أكبر قسم من الغنائم ، وقد استجاب الرسول ﷺ لطلبهم ، بل وأعطاهم أكثر مما كانوا يرغبون ، حتى صار النبى ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، ولعل الشاعر يغرى ممدوحه بذلك .

إن تأثر أبى تمام بالثقافة الإسلامية أمر يعكس إيمانه الشديد واعتزازه المطلق بالإسلام عقيدة ، وبروافده علماً وثقافة ، وقد بان لنا كيف كان المعجم اللغوى الإسلامى مصدراً رئيسا من مصادر لغته الشعرية ، وقد شيد من لبناته شتى موضوعات شعره ، مما يدل على أن القاموس الإسلامى قادر على تلبية حاجة كل الشعراء ، على مختلف ميولهم ، وتنوع موضوعاتهم ،

وحسبى أن أعرض لبعض من مفرداته وتراكيبه ، التى وقع عليها من القرآن الكريم ، وسخرها فى التعبير عن مختلف المعانى – إضافة إلى ما سبق – يقول مادحاً [2] :

أولئك قد هدوا فى كل مجد إلى نهج الصراط المستقيم

---

(١) الديوان : ١ / ٥٥ ، ٢ / ٧٩ .
(٢) الديوان : ١ / ٥٥ ، ٢ / ٧٩ .

من قول الله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ (الفاتحة : ٦)

ويقول فى المأمون [١] :

يا وارث الملك إن الملـك محتـبس وقف عليك إلى أن تنشـر الصـور

من قوله تعالى : { ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ } (عبس : ٢٢)

وقوله [٢] :

وبَـيَّن الله هـذا مـن بريتـه فى قوله "خلق الإنسان من عجـل "

من قوله تعالى :

{ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } (الأنبياء : ٣٧)

وقوله فى وصف مقتل بابك بجانب مازيار [٣] :

ثانية فى كبـد السـماء ولـم يكـن لاثنـين ثـان إذ هما فـى الغـار

من قوله تعالى : { إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (التوبة : ٤٠)

وقوله [٤] :

نقلوا مـن المـاء النميـر وعيشـة رغـد إلـى الغسـلين والزقـوم

---

(١) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .
(٢) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .
(٣) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .
(٤) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .

من قول الله تعالى : {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ } (الصافات : ٦٢) ، وقوله : { وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ } (الحاقة : ٣٦)

وقوله [١] :

ومن يـأذن إلـى الواشـين تسـلق مسـامعه بألسـنة حـداد

من قوله تعالى : {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} (الأحزاب : ١٩) .

وقوله [٢] :

إن شئت أتبعـت إحسـاناً بإحسـان فكان جـودك مـن روح وريحـان

من قول الله تعالى : {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} (الواقعة : ٨٩) .

وإضافة إلى بنائه من المفردات والتراكيب الإسلامية ، المقتبسة من القرآن الكريم على نحو ما مر ، فإننا لإنعدام تأثره بالتراكيب النبوية . نجد ذلك فى مثل قوله [٣] :

فـلا والله مـا فـى العـيش خيـر ولا الـدنيا إذا ذهـب الحيـاء
إذا لـم تخـش عاقبـة الليـالى ولـم تسـتحى فافعـل مـا تشـاء

فهو من قول النبى ﷺ السابق ذكره .

---

(١) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .
(٢) الديوان : ٢ / ٧٩ ، ٢ / ٤٤ ، ١ / ٣٤٠ ، ٢ / ١٣٤ ، ١ / ٢٠٥ ، ٢ / ١٧٠ .
(٣) الديوان : ٢ / ٣١١ .

كما لا يخفى – كما أشرت – إلى تأثر أبى تمام بالمصطلحات والعلوم الشرعية التى استحدثها الإسلام .

ونتيجة لتأثر أبى تمام بالثقافة الإسلامية ، فقد اتسمت لغة شعره الإسلامى بعدد من الظواهر الفنية ، لعل من أهمها :

السهولة والوضوح ..

كثير من النقاد وصف شعر أبى تمام بالتعقيد والغموض مستشهدين على ذلك بشعره ، وبما أثر عنه من أقوال ، تدل على شغفه بالغريب ، وتفضيله للغامض .

والحقيقة أن معظم تلك الأشعار التى تتسم بالغموض ، وبمخالفة ما تعارف عليه الناس فى عصره، أجدها بعيدة الصلة عن الموضوعات التى تأثر فيها بالإسلام شكلا ومضمونا .

لكننا حين نطالع معظم موضوعات شعره ، التى أقام بناءها من خلال مفردات وتراكيب اللغة ، التى وقع عليها من القرآن الكريم ، أو السنة النبوية ، أو من نتاج مصطلحات العلوم الشرعية ، لا شك فى أنها تتسم بوضوح الدلالة ، وقرب المأخذ ، وحسبنا أن نقرأ قوله فى مدح الخليفة المأمون [1] :

الله أكبر جاء أكبر من جرت ... وتحيرت فى كنهه الأوهام

من لا يحيط الواصفون بقدره ... حتى يقولوا قدره إلهام

مستسلم لله سائس أمه ... لذوى تجهضمها له استسلام

---

(١) الديوان : ٢ / ٧٣ .

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام
ما زال حكم الله يشرق وجهه فى الأرض مذ نيطت بك الأحكام

نقرأ هذه الأبيات – وغيرها – فنلحظ أنه عمد فيها إلى الألفاظ الإسلامية ، والمعانى الخلقية ، ثم لا نكاد نقف على لفظ غريب ، أو معنى معقد بعيد ، أو تركيب متشابك ، ولا أحسب قوله (تجهضمها) إلا من حسن اختياره للألفاظ المناسبة لإبراز المعنى ، ذلك أنه أراد أن يقابل بين قوة الإسلام وقوة العدو ، فجعل أعداء الإسلام من ذوى التجهضم والجبروت ، ومع ذلك قهرهم الخليفة المسلم ، وأذل عزتهم المزعومة الباطلة ، وهذه طريقة أبى تمام حين يمدح قواد المسلمين ، يعلى من شأن خصومهم ، وشدة بأسهم ، حتى يدلل بذلك على أن القائد المسلم أشد قوة وأعظم بأس .

دقة الأسلوب وفصاحته :

أبو تمام واحد من الشعراء الذين شغلوا بالثقافة ، وتحصيل العلوم، فهو على علم بقواعد اللغة ، وعلى دارية بلهجات العرب ، وطرق أدائهم وقد انعكس كل ذلك على شعره ، وبخاصة ثقافته اللغوية، إذ تشيع فى ديوانه معظم لهجات العرب الشائعة وغير الشائعة ، وربما دفعته هذه الثقافة إلى أن أصبحت الجملة عنده بناءً معقد التراكيب ، لا يأبه إن كان قد سار فيه على سنن القدماء ، أو ثار عليهم ، ذلك أن عنايته كانت منصبة على إصابة المعنى ، ولو تحقق له بطريق المخالفة، ومن ثم فلا مانع عنده أن تتشابك الجمل ، ويتعلق بعضها ببعض ، حتى تصل إلى حد المعاظلة ولا بأس من لتقديم والتأخير ، والحذف ، والزيادة .

وهذا المذهب الطائى قد جعل كثيراً من النقاد يخطئونه ، فى كثير من شعره ، لما خرج عن مألوف ما تعارفوا عليه . ومع التسليم بجدة مذهب أبى تمام ومحاولته الخروج عن مذهب الجمهور ، إلا أننا نلحظ أن هذه المخالفة لم تصب موضوعات شعره ، ذى المضامين الإسلامية فى الغالب .

وهكذا أبو تمام حين يأخذنا معه فى شعره إلى مطلق ثقافته العامة، يجعلنا فى حيرة من أمره . ويقسمنا بين مؤيد معجب ، ورافض مستنكر ، لكن حين تكون الثقافة الإسلامية رافداً من روافد لغته ، لا نملك سوى التأكيد على عبقريته ، والتدليل على سلامة لغته ، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى تأثره بالقرآن الكريم الذى وحَّد لهجات العرب ، وجعل لغة قريش لغة للأدب ، ومن ثم لم يعد للتركيب والتعقيد أثر واضح فى شعره وألفاظه ، وتراكيبه الإسلامية .

الفصل الثانى

أثر الإسلام فى الخيال والصوير

لا شك أن الخيال عنصر رئيس ومهم من عناصر بناء القصيدة إذ هو الذى يثير فينا عواطفنا ، ويحرك ويشغل ما سكن تحت جوانحنا ويشدنا نحو الشاعر ، نعيش معه تجربته ، ونتعرف على فكرته وعاطفته .

ولما كان الخيال هو : (الأداة اللازمة لإثارة العاطفة وإشعالها وهو الذى يملك به الشاعر والأديب نفس القارئ أو السامع ، ويجعلها تتعجب وتطرب من مشاهد الصورة فى القصيدة ، فإنه بقدر ما استطاعت الصورة تحقيقه من تناسب بين معاناة الشاعر ، وما يصوره فى الخارج)[1] يمكن نجاحها ، إضافة إلى قدرتها على نقل فكرة الشاعر إلى المتلقى ، ولن تستطيع الصورة أداء هذه المهمة إلا إذا كانت لبنة رئيسة من لبنات بناء القصيدة ، وبحيث تؤدى كل صورة جزئية دورها داخل القصيدة ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كانت الصور الجزئية متآزرة ، متآلفة منسجمة مع الصورة الكلية فى وحدة الفكرة ، والشعور. (وإذا انفصلت الصورة الجزئية عن مجموعة الصور الأخرى، المكونة للقصيدة فقدت دورها الحيوى فى الصورة العامة) [2].

وأبو تمام شاعر ممن تسنموا ذروة التصوير ، والإبداع فيه والخروج على سنن ما تعارف عليه شعراء عصره ، يعينه على ذلك توقد

---

(١) النقد العربى الحديث ومذاهبه . د/ محمد عبدالمنعم خفاجى ص : ٤٤ . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة .

(٢) الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره د/ عز الدين إسماعيل : ١٤٩ دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ .

ذكاء ، وحدة قريحة ، ورهافة حس ، ورغبة جامحة فى التجديد . إضافة إلى مقدرة على اختزان ذاكرته شعر الأقدمين وصورهم ، سواء أكانوا فى الجاهلية أم الإسلام .

ولئن كان أبو تمام قد استقى كثيرا من المعانى والأفكار الإسلامية، وشيد صرح بنائها من المفردات والتراكيب الإسلامية – أيضا – فإن جانب التصوير قد حظى بالرافد نفسه .

فهو ينظر إلى القرآن الكريم ، والسنة النبوية مصدراً من مصادر الصورة ، كذلك تسعفه ذاكرته بالمواقف الإسلامية الخالدة ، إضافة إلى ما وقع عليه من مشاهد عصره .

ومن ثم فليس بخاف أن نستجلى أثر الإسلام فى التصوير ، سواء أكانت الصورة كلية ، أم كانت جزئية .

هذا وقد حفلت معظم قصائد أبى تمام – وبخاصة تلك التى يصور فيها الصراع بين الإسلام وأعدائه بتصوير حال الدين ، ومن ثم حال المسلمين قوة وضعفاً ، وأمنا وخوفا ، كذلك صور فى المقابل حال الكفر والكفار ، يعينه على ذلك عبقريته الفذة فى التصوير .

نقرأ مثلا قوله يذكر سبب غزو المأمون للروم ، فيقول [1] :

لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تغطرس وعرام
أوريت زندعزائم تحت الدجى ... أسرجن فكرك والبلاد ظلام

نجده قد جعل الدين شخصاً ، يضطرب قلبه خوفا من شدة بأس عدوه ، وفى المقابل وقف الكفر متمثلا فى رجل متكبر متغطرس ، يباهى بقوته ويرهب ، ويفاخر بعظمته ويتوعد .

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٦ ، ١ / ١٨ ، ٢ / ٦٩ .

إنها صورة تعكس حال الإسلام والمسلمين ببلاد الروم ، ثم إنها لتدل على أن حروب المسلمين ما كانت إلا دفاعا عن أنفسهم ، وعن عقيدتهم .

وصورة أخرى يصور فيها حال الدين بعد نهاية المعركة ، يقول فيها [1] :

رددت الـــدين وهـــو قريـــر عـــين بها والكفـــر وهـــو ســـخين عـــين

لقد لعبت كل لفظة فى البيت دورها فى رسم المعنى ، وأدت كل عبارة الغاية منها ، فعن طريق المقابلة يشخص الدين رجلا مبتهجا بالنصر مسرورا به ، وفى المقابل يقف الكفر مهموما محزونا ، تسح عينه الدموع .

ولنتأمل قوله (رددت) الذى يدلنا على ما كان عليه قبل المعركة، وما كان عليه الكفر أيضا إذ الرد : الإرجاع عن السقوط والضعف ، أو الإرجاع عن حال إلى حال ، ولا شك أنها صورة نفسية تدركها المشاعر ، وتستطيبها النفوس المؤمنة ، بينما هى صورة مؤلمة لنفوس وقلوب الروم . وشبيه بتلك الصورة قوله [2] :

رددت أديـــم الـــدين أملـــس بعـــدما غـــدا ولياليـــه وأيامـــه جُـــرْبُ

فقد جعل الدين شيئا ظاهرا ملموسا ، وجعل له أدمة ملساء على سبيل الاستعارة ، وذلك كى يظهر الأثر واضحا جليا ، أمام كل ذى نظر وفى قوله : (بعدما غدا ولياليه وأيامه جرب) مقابلة بين الحال والمآل

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٦ ، ١ / ١٨ ، ٢ / ٦٩ .
(٢) الديوان : ٢ / ٢٥٦ ، ١ / ١٨ ، ٢ / ٦٩ .

ذلك أن الدين قد عاد أملس لا عيب فيه ، بعد أن كانت أيامه ولياليه مصابة بالجرب ، وفى ذلك ما يعكس حال المسلمين قبل المعركة، إذ أنهم كانوا يشبهون الأجرب ، الذى تتحاشاه الناس ، فكانت المعركة التى ردته إلى حاله ، ونفت عنه العيوب .

وفى موضع آخر يصف الإسلام بعد النصر ، ويمدح المعتصم فيقول [1] :

أمسى بك الإسلام بدرا بعدما ... محقت بشاشته محاق هلال
أكملت منه كلَّ نقص بعدما ... نقصته أيدى الكفر بعد كمال
ألبسته أيامك الغر التى ... أيام غيرك عندهن ليال

إنها فرحة المسلم بالنصر ، فرحة جعلت كل ملكات التخيل تتنافس فى رسم هذا الشعور .

وقد كانت السماء فى سموّها ، والبدر فى حركاته بين النور والظلام ، والقوة والضعف ، المعادل الموضوعى الذى قابل به الشاعر بين حال الكفر والإيمان .

لقد أمسى الإسلام (بدراً) وفى هذا التشبيه دلالة على ما كان عليه الإسلام قبل ذلك ، وإيحاء باكتمال قوته وانتشاره ، وعموم نفعه لكل الناس وفى قوله : (بعدما محقت بشاشته) تصوير استعارى حيث جعل الإسلام تحت وطأة الكفار رجلاً مكفهر الوجه مقطب الجبين ، حزين البال ومبالغة فى رسم هذه الصورة يلجأ أبو تمام إلى صورة أخرى ، تقرب إلى الأذهان المعنى ، وترسم الحال واقعاً تدركه الأبصار، ذلك أن الإسلام فى ظل هذه الحال كان وكأنه (محاق هلال) أى أنه يشبه آخر أيام الشهر

---

(١) الديوان : ٢ / ٦٩ .

ظلمة ، أو أنه يشبه القمر حين يستسر ، فلا يرى غدوة ولا عشية ، لأنه طلع مع الشمس فمحقته .

هكذا كان المسلمون فى بلاد الروم ، من الضعف والاحتقار ، حتى سخر الله لهم هذا القائد ، الذى أكمل للبدر نقصانه ، وردَّ له تلألؤه وأنواره وما أروع التصوير فى قوله (ألبسته أيامك الغر) حيث جعل للإسلام جسداً ، وجعل أيام القائد لباساً لهذا الجسد ، ثم نعت اللباس بأنه أغر .

وفى الحقيقة أنه لا وجود لتلك الصورة فى الواقع ، إنما ذلك إيحاء نفسى من الشاعر ، بأن الإسلام قد أصبح يعيش أيام النصر والعزة، وأن عزته وكبرياءه لا تنفك عنه أبدا ، فكأنه رجل تردَّى رداء العزة والكبرياء .

ويقود تصوير الدين إلى تصوير الخلفاء ، والأمراء ، والقواد الذين يعملون على حماية الدين والتضحية فى سبيله ، والذود عن أهله . وهو فى كل ذلك يستمد روافد صوره من ثقافته الإسلامية التى ساقاها من قيم الإسلام ومثله ، ومبادئه العظيمة .

من ذلك تلك اللوحة الرائعة ، التى رسمها للقائد أبى سعيد الثغرى، والتى تجسد بطولته وذوده عن الإسلام ، وفيها يقول (١) :

يا فارس الإسلام أنت حميته ... وكفيته كلب العدو المعتدى
أصبحت مفتاح الثغور وقفلها ... وسداد ثلمتها التى لم تسدد
أدركت فيه دم الشهيد وثاره ... وفلجت فيه بشكر كل موحد
ضحكت له أكباد مكة ضحكها ... فى يوم بدر والعتاة الشهد
أحييت للإسلام نجدة خالد ... وفسحت فيه لمُتْهِمٍ ولمُنْجِدِ

(١) الديوان : ١ / ٣٠٢ .

لقد تعددت ألوان الخيال فى هذه اللوحة ، التى رسمها لبطولة أبى سعيد ، فهويكنى عنه بـــ (فارس) وما توحى به تلك الكناية ، من إثبات صفة البطولة ، ثم يجعل فروسيته فروسية مخصوصة ، فهو (فارس الإسلام) من أجله يقاتل ، وفيه يجاهد ، ومن هنا كانت النتيجة (أنت حميته) وإذا كانت هذه هى صورة البطل المسلم ، ففى المقابل تلقانا صورة الخصم المشرك ، الذى كنى عنه بقوله : (كلب العدو) ولا تخفى الإيحاءات النفسية التى عبرت عنها هذه الكناية : من الخسة ، والانحطاط وعدم تساوى القدر مع القائد المسلم ..

وتمتد الصورة ، وتتعدد فضائل القائد البطل أمام الشاعر ، فيتحول به إلى رموز ، تحمل من المعانى والقيم والمشاعر الإسلامية ، ما يجعل هذا البطل فخراً للإسلام والمسلمين . فهو (مفتاح الثغور) وهو (قفلها) وهو أيضاً (سداد ثلمتها) .

والمتأمل فى هذه الأوصاف يلحظ أن الشاعر قد أضفى عليها بعداً دينياً حين أضافها للثغور ، إذ الثغور : الأماكن التى يخشى دخول العدو منها ، فيتحصن المسلمون فيها لمنعهم من ذلك ، والتعبير بالمفتاح يصور قدرة الممدوح على الفتوحات ، وسهولتها عليه ، وفى المقابل يأتى قوله : (قفلها وسدد ثلمتها) ليصور عدم قدرة العدو على فتح ثغور المسلمين فهى متحصنة بهذا المفتاح ، الذى لا يمكن أن يلج قفله مفتاح مهما كان .

وما زال الشاعر معجباً ببلاء هذا القائد ، وما حققه من انتصارات عظيمة للإسلام ، ففى ذلك اليوم الذى انتصر فيه على أعداء الإسلام يكون قد (أدرك دم الشهيد) أى أخذ لكل من استشهد من المسلمين بثأره، وتوحى هذه الكناية أيضاً بأن قتال المسلمين لم يكن عدواناً وبغيا ، إنما هو رد على أعدائهم ، ودفاع مشروع عن النفس ، وأخذ بالثأر من المعتدين .

ويستعين الشاعر بالتشبيه باعتباره أقرب الوسائل ، التى يدرك بها العقل الصورة ، فيشبه فرحة الانتصار بهذا اليوم ، بفرحة المسلمين حين دحروا صناديد الكفر فى بدر ، هذا وإن يكن المسلمون فى عصر أبى تمام قد شهدوا بدراً بأعينهم ، فإن عقيدتهم الراسخة ، وارتباطهم بهذا اليوم العظيم قد سوَّغ لأبى تمام أن يربط بين اليومين ، وأن يعقد الصلة بينهما .

كذلك يشيع فى جانب التصوير التشبيه بالصور الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم . نجد ذلك فى قوله يصور مآل المشركين بعد المعركة[1] :

قسمناهم فشَطرٌ للعوالى وآخر فى لظى حرق الوقود
كأن جهنم انضمت عليهم كلاها غير تبديل الجلود

لقد وقع هؤلاء المشركون تحت سطوة المسلمين ، الذين ما تركوهم إلا بين قتيل تناوشته السيوف والرماح ، أو حريق يتلظى فى حرق الوقود ويحرك هذا المشهد فكر الشاعر ، وتنقله الصورة إلى مشهد إيمانى غيبى فيستحضر ما أخبر الله به من عقاب لأولئك الخارجين عن شرعه يوم القيامة ، ويجعل ما حلِ بهؤلاء معادلاً لما ينتظرهم يوم القيامة حيث تخيل هؤلاء القتلى والمحرقين وكأنهم قد أدخلوا جهنم ، غير أن أهل جهنم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، أما هؤلاء فقد أحرقوا دفعة واحدة ، وكأن أبا تمام قد تمثل فى هذا التصوير قول الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء : ٥٦) .

---

(١) الديوان ١ / ٢٥٤ .

كذلك يلهمه إيمانه بمشهد يوم البعث ، بأن يتخذ صورة هذا المشهد للتعبير عن ضياع الأحساب ، واختلاط الأنساب ، وتبدل القيم والمثل فى عصره . يقول [1] :

فاض اللئـــام وغاضـــت الأحســـاب واجتثـــــت العليـــــاء والآداب
فكـــأن يـــوم البعـــث فاجـــأهم فـــلا أحســـــاب بيـــــنهم ولا أنســـــاب

ها هو أبو تمام يريد أن يوحى إلينا ، بأن المقاييس فى عصره معكوسة ، والأوضاع باتت مقلوبة ، فيستعين بدلالات الأفعال (فاض غاض ، اجتثت) للتعبير عن هذه المعانى ، وقد كان الشاعر دقيقاً فى إسناد هذه الأفعال ، ففى مجال حديثه عن ظهور تلك الطبقة المتسلقة (اللئام) التى لا أصل لها ولا نسب ، يختار الفعل (فاض) الذى يوحى بالكثرة والغلبة ، وفى المقابل يعبر عن اختفاء أهل المروءة والشرف بالفعل (غاض) وما يوحى به من انكسار وانحدار ، ونتيجة لهذا التغيير فقد (اجتثت العلياء والآداب)

وما أقسى على أبى تمام أن تنهار أمامه تلك القيم ، على أيدى القائمين على رعايتها ، ومن ثم كانت دلالة الفعل (اجتثت) إيحاءً من الشاعر بذهاب القيم ، وتبدل الأعراف ، واختلاط الدخيل بالأصيل والغث بالثمين ، وربما كانت غرابة هذا التغير قد ألجأت أبا تمام إلى تشبيه تلك الهيئة – اختلاط الناس بعضهم ببعض على مختلف مستوياتهم ، وأجناسهم – بيوم البعث :

فكـــأن يـــوم البعـــث فاجـــأهم فـــلا أحســـــاب بيـــــنهم ولا أنســـــاب

---

(١) الديوان : ٢ / ٣١٨ .

إن وقوع أبى تمام على هذا التصوير القرآنى ليعكس إيمانه القوى بما أخبر الله به ، فهو يلجأ إلى تصوير وتوضيح هيئة مجتمعه بأمر غيبى استقر فى ضميره ، حتى صار شاهداً أمام عينه ،إنه يستمد تلك الصورة من قول الله تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ (المؤمنون : ١٠١) .

وعلى هذا النسق من التصوير ، جاء تصويره لعدم السماح له بالدخول إلى حيث يجلس الممدوح بمن حرم دخول الجنة ، لما لم يكن له عمل صالح يدخله . يقول [١] :

مالىَ أرى الحُجرة الفيحاءَ مقفلة ... عنى وقد طالما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة ... وليس لى عمل زاكٍ فأدخلها

إن المتأمل فى تلك الصورة ، يلحظ أن أبا تمام لم يشبه حجرة الخليفة بجنة الفردوس ، إنما هو يشبه عدم السماح له بالدخول إلى هذه الحجرة – لما لم يكن له قبول لدى الممدوح – بمن حرم دخول جنة الفردوس ، لما لم يعمل عملاً يدخله تلك المنزلة من الجنان ، ولا شك أن هذا التصوير يدل على معرفة أبى تمام بمنازل الجنان ، وأن دخولها مرتبط بالعمل ، الذى يعمله الإنسان فى الدنيا .

وقد تكون الصورة الشعرية مستمدة من القصص القرآنى ، كما فى قوله مخاطباً عبدالله بن طاهر [٢] :

أيهذا العزيز قد مسنا الضـ ... ـر جميعاً وأهلنا أشتات
ولنا فى الرجال شيخ كبير ... ولدينا بضاعة مزجاة

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٤ .
(٢) أخبار أبى تمام : ١٤٠ .

قــل طلابهـــا فأضـــحت خســـاراً فتجاراتنـــا كلهـــا ترهـــات
فاحتسب أجرنا وأوف لنـــا الكيـــ ـــــل وصـــدق فإننـــا أمـــوت

قد يكون التعبير الحقيقى أبلغ وأكثر تصويراً للمعنى من التعبير الخيالى ، ولكن لا يقدر على هذا النسق إلا متمكن من الشعراء (فالصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال ، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير) [1] .

والمتأمل فى اللوحة السابقة يجدها تقص حكاية الشاعر ، وجماعة من الناس ، طال وقوفهم بباب الأمير (عبدالله بن طاهر) دون أن تقضى حاجتهم ، فأرسل أبو تمام بهذه الأبيات إلى الأمير ، يقص فيها حاله ، وحال جماعته ، وفيها نرى الشاعر يخاطب الأمير بقوله (أيهذا العزيز) وبعد هذه التهيئة النفسية والذهنية ، يقص عليه قصته وقصة من معه ، فقد (مسَّهم الضر) ثم هم غرباء (أشتات) وبينهم العاجز ، الذى لا يقدر على أعباء الحياة ، (لنا شيخ كبير) وإضافة إلى عجزهم الجسدى فإن لديهم بضاعة فاسدة (مزجاة) أعرض عنها الناس ، فصارت (خسارا) ومن ثم يرجو منه أن يحسن وفادتهم ، وأن يجزل العطاء لهم ، ويوفى لهم الكيل .

هذه قصة أبى تمام وجماعته، كما عرضها على العزيز (الأمير) ما أشبهها فى شخوصها ، وأحداثها بموقف أخوة سيدنا يوسف ، حين دخلوا عليه يشكون حالهم ، وما أصابهم من ضر ، وفسد من تجارة ، ومن ثم فما أحوجهم إلى أن يوفى لهم الكيل ، ويتصدق عليهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا

---

(١) النقد الأدبى الحديث / محمد غنيمى هلال ص ٤٣٢ . دار نهضة مصر .

ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ﴾ (يوسف ٨٨) .

هكذا يستحضر الشاعر عناصر قصة أخوة يوسف ، ويتخذ منها شبهاً يحكى موقفه ، لعله بذلك يصل إلى ما وصل إليه أخوة يوسف ، حين قال لهم : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ (يوسف : ٩٢) .

كذلك قد يلجأ إلى استحضار أيام الإسلام الخالدة ، كغزوات النبى ﷺ ومواقفه ، ليتخذ منها معادلاً فى تصوير حروب الخلفاء للروم وغيرهم فى عصره .

من ذلك أنه أكثر التشبيه بيوم بدر ، لما لهذا اليوم من أثر عظيم على الإسلام والمسلمين .

فهو مثلا يجعل حروب المعتصم للروم شديدة الشبه ببدر ، أسباباً ونتائج من جهة ، وشبيهة لها أيضاً فى رجالها ، وأبطالها من الطرفين وفى ذلك يقول [١] :

فبين أيامك اللاتى نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

وفى لوحة أخرى تصور أثر الهزيمة ، وتحكى حال الانتصار ، يأخذنا أبو تمام إلى بدر، وحنين، حيث ما زالت الأحداث عالقة بالأذهان، وما زالت النتائج تقرُّبها الأعين ، وتطرب لها الآذان . يقول [٢] :

فأضحوا بعد عز واختيال وهم عبر لأهل المشرقين

---

(١) الديوان : ١ / ٤٩ .
(٢) السابق : ٢ / ١٥٦ .

لقد دمر المسلمون أصحاب بابك ، وأوقعوا بهم هزيمة نكراء ذهبت بعزتهم ، وحطمت خيلاءهم ، على الرغم من كثرة عددهم، وعدتهم وتحصنهم ، وما أشبه هزيمة هؤلاء ، ونصر المسلمين بذلك النصر العظيم الذى حققه المسلمون الأول فى بدر ، حين قتلوا صناديد مكة ، وقوادها ورؤوس الكفر فيها على الرغم من كثرة عددهم ، وعتادهم ، ومن ثم كانت غزوة بدر نقطة تحول فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

وإذا كان انتصار المسلمين على أصحاب بابك يشبه انتصارهم فى بدر على مشركى مكة ، فإن بلاءهم ، وبسالتهم ودفاعهم عن دينهم أمام جحافل بابك ، لشديد الشبه بكفاح المسلمين فى حنين .

وهكذا يسبغ أبو تمام على غزوات القواد من المشاعر الإسلامية ما يجعلها شديدة الصلة بماضى المسلمين الخالد .

ويبدو أن أبا تمام قد كان شديد الإعجاب بغزوة بدر ، الأمر الذى جعله يتحول إليها فى كل موقعة يحقق فيها المسلمون انتصاراً جديداً للإسلام ، ويتخذ منها معادلاً يصور به انتصار المسلمين على الروم .

ذلك أنه لما تمكن ابن يوسف الطائى من القضاء على فلول بابك وإنهاء سيرتهم ، فى يوم عظيم للإسلام ، تتحرك ثورة الفرح بهذا الانتصار داخل أبى تمام ، فيصور هذا اليوم بأنه يوم (لم يذممه بدر) لأنه شبيه له فى الانتصار على أهل الشرك ، كذلك (لم يفضح به أحد) لأنه أخذ له بثأره من الكفار حين هزموا المسلمين آنذاك .

يوم يجـــئ إذا قـــام الحســـاب ولـــم يذممه بدر ، ولم يفضح به أحـــد (١)

وهكذا كانت عقيدة الشاعر الراسخة ، وثقافته الإسلامية الواسعة رافداً يلهمه بالأحداث التى نسج منها تصويره .

- وانطلاقا مما حث عليه الإسلام من محاربة للرذائل وتشجيع على الفضائل ، يسخر أبو تمام شعره ويعمل فيه عواطفه ، وفكره ، حتى لكأننا نتحسس أطراف الصورة بأيدينا ، ونتقراها بأعيننا . بكل قساوتها وشناعتها .

ولعلنا نقف عند تلك اللوحة الفنية الرائعة ، التى رسمها لمقران المباركى ، وزوجه التى ماتت عنه ، وفيها يقول (٢) :

يا زوجة المســـكين مقـــران التـــى عظمت علـــى المتطـــرفين وفاتهـــا
خلت القبـــور بظبيـــة عهـــدى بهـــا فيمـــا يقـــال : لذيـــذة خلواتهـــا
تركت على المسكين عـــدة صـــبية مثـــل الفـــراخ تخرمـــت أماتهـــا
لـــو كـــان أحصـــن بابـــه أو داره قلَّـــت بنوهـــا عنـــده وبناتهـــا
إن الـــبلاد إذا الســـيول تعـــاورت ســـاحاتها غمـــر الفضـــاء نباتهـــا
متنـــاوم إن زارهـــا إخوانهـــا متـــيقظ إن زارهـــا أخواتهـــا

إنها صورة ساخرة فريدة ، وعلى الرغم من شدة التصاقها بالحواس فقد جاءت فى غاية القوة والدلالة ، واستطاعت أن تصور عن طريق إيحاء ألفاظها تلك المرأة الساقطة ، تصويراً حياً ، وقد بدأت الصورة بوصف هذا الرجل ، بقوله (زوجة المسكين) ولعل هذا الوصف يوحى بمكانة الزوج لدى زوجه ، فهو مسكين لا حول له ولا قوة ، مستقر فى بيته ، ذليل

---

(١) الديوان : ١ / ٢٤٤ .
(٢) الديوان : ٢ / ٣٢٣ .

ضعيف أسكنه الفقر ، وقلل حركته ، وربما أسكنته تلك المرأة ، التى خرجت عن طاعته ، وتتحرك الصورة ، ويظهر فيها تلك المرأة وقد أتى عليها الموت فلا يحزن عليها غير (المتطرفين) ممن هم على شاكلتها من السقوط والانحراف ، ومن ثم فهى وحيدة غريبة لا مؤنس لها فى قبرها – إذ لا عمل صالح لها يؤنس وحشتها وإن كانت تؤنس فى حياتها طالبى اللذة والمتعة المحرمة – . (خلت القبور بظبية) ولعل قوله (فيما يقال لذيذة خلواتها) احتراس من الشاعر ، ودفع لمظنة أن يكون قد تغشى تلك الخلوة فعرفها ، إنما هو يحكى ما يرويه الناس عنها وتتنامى الصورة وتتعدد المشاهد ، ويلتقط أبو تمام لقطة تجسد سوء العاقبة والانحراف وتثير فى النفوس الشفقة والاشمئزاز فى آن واحد ، إنها صورة أولئك الأطفال التى تركتهم تلك المرأة ، يعج بهم المكان ، وتتقارب أعمارهم وقد أبلاهم الوهن ، وأسكتهم الجوع ، وكأنهم فراخ ماتت عنها أمهاتها .

تركت على المسكين عدة صبية مثل الفراخ تخرمت أماتها

وفى قوله : (تركت على المسكين) إيحاء بأن هؤلاء الأولاد إنما هم أبناء تلك المرأة فقط ، وتأكيداً لهذا المعنى تأتى الكناية فى البيت التالى بقسوتها ، وجرأتها لتكشف السر ، وتعلل لكثرة الأولاد ، وقرب أعمارهم .

لو كان أحصن بابه أو داره قلت بنوها عنده وبناتها

إنها مسؤولية الزوج التى تخلى عنها ،والأمانة التى خانها ، فلو أن هذا الزوج قد (أحصن بيته) فلم يسمح لزوجه بالدخول والخروج إلا على علم منه ، و(أحصن بيته) فلم يدخله غير من يجوز لهم الدخول ، لو أنه فعل ذلك (قلت بنوها عنده وبناتها) ما أقسى النتيجة ، وما أروع التصوير .

واستكمالاً لرسم صورة هذا الرجل ، الذى قعدت به همته عن الشرف والمروءة عن العفة ، يأتى البيت الأخير كاشفاً عن خلقه ، وغايته وعن هيئته فى بيته .

متتـــــاوم إن زارهـــــا إخوانهـــــا متـــــيقظ إن زارهـــــا أخواتهـــــا

لقد فقد هذا الرجل شهامته ، ونسى رجولته ، فهو يدعى النوم إن زار زوَجه أحدُ أخوانها إذ لا فائدة من الجلوس مع الرجال فى نظره ، بينما إن زارها أخواتها حارب النوم ، وتيقظ فى حيوية ، لا لشئ سوى حبه مجالسة النساء ، وإن كن أخوات زوجه .

لا شك أن هذه الصورة التى رسمها أبو تمام ما عمد إليها إلا ليبرز لمجتمعه خطورة هذا الفعل ، وتنافيها لتعاليم الإسلام وقيمه ، وكأنه أراد للمجتمع الثورة على كل من كان على شاكلة مقران وزوجه ..

وهكذا يدلنا التصوير على إيمان أبى تمام الشديد ، وفهمه القويم لما أورده من صور تتكئ على الكتاب والسنة ، رافداً من روافد بناء الصورة عنده . ولا أدل على ذلك من دقة العلاقة بين المعنى المقصود ، وبين ما يستشهد به من صور قرآنية ، مما يعكس تدبره للقرآن الكريم ، وفهم ما جاء فيه من تصوير ، ومن ثم حسن له الاقتباس من التصوير القرآنى والحديث النبوى .

الخاتمـــة

وهكذا ينتهى بنا البحث إلى صفحاته الأخيرة ، ولا أدعى أننى أحطت بكل كبيرة ، وصغيرة ، تتعلق بالكشف عن أثر الإسلام فى شعر أبى تمام ، ولكنى حاولت قدر الإمكان ، فبدأت بعرض موجز شملته المقدمة ، وفيه تناولت أبا تمام مولداً ، ونسبا ، وثقافة ، ودِيناً ومذهبا ولاحظت أن ما رُمى به من تهم فى دينه لا يستند على دليل واضح ، أو برهان جلى ، إنما هى رواية يرويها " ابن رجاء " تقص أنه كان يقصر فى صلاته ، ثم ردد الصولى وغيره من العرب والمستشرقين ما قاله ابن رجاء ، وغيروا وبدلوا فى الرواية ، والحقيقة أن أبا تمام كان ديناً ، يشهد ظاهر تصرفاته بذلك ، وحسبنا ذلك ، أما ما وقر فى قلبه فالله يعلمه . ولسنا مطالبين بمعاقبته عليه ، ما لم يجهر به .

كذلك عرضت لمحاولة علماء الشيعة نسبة أبى تمام إلى مذهبهم والقول بتشيعه ، مستدلين على ذلك ببعض شعره ، وقد تبين أن أبا تمام رجل محب لآل البيت ، حب لا يفرضه مذهب ، ولا يمليه تشُّيع ، حب شأنه الدفاع عن المحبوب ، والتضحية من أجله ، مما قد يوهم البعض أنه شيعى .

وجاء الباب الأول تحت عنوان : (أثر الإسلام فى مضمون شعر أبى تمام) وفى الفصل الأول منه عرضت لـــ (أثر الإسلام فى المعانى والأفكار) وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : (أثر الإسلام فى معانى شعر المديح وأفكاره) وفيه لاحظت أن أبا تمام شغوف بالمثل والقيم الإسلامية ، متغن بأمجاد

المسلمين ، فخور بأمته ، ومن ثم كانت هذه المعانى حُللاً زين بها ممدوحيه من الخلفاء ، والأمراء ، والقواد ، وهو فى ذلك كله يستلهم من القرآن الكريم ، ويستنطق الأحاديث النبوية ، ويستقرئ الثقافة العربية جاهلية ، وإسلامية ، ليتخذ من كل ذلك معادلاً موضوعياً ، يستعين به على بناء قصيدة المديح .

وقد كانت مثالية الخلفاء فى الحكم من أكثر المعانى الإسلامية التى مدح بها الخلفاء والأمراء ، فجعل الخلافة أمراً قدره الله للخليفة وجعلها تأتى إليه منقادة استجابة لأمر ربها .

أما الخليفة فهو القائم على أمر الله فى الأرض ، الناشر للعدل القاضى بالحق ، العارف بالحدود ، ثم هو المدافع عن الدين ، والزائد عن حياض الإسلام والمسلمين .

وإضافة إلى ذلك فقد مدح ممدوحيه بكريم سجاياهم ، وسماحة نفوسهم ، وشريف نسبهم ، إذ هم امتداد للنسب النبوى الشريف ، كما فعل مع محمد بن عبدالملك بن صالح الهاشمى . كذلك مدحهم بحرصهم الشديد على أداء الفرائض ، كالجهاد ، والصيام ، والحج .

ويأتى حديث الحرب فى قصيدة المديح معطراً بكل القيم والمبادئ الإسلامية ، والمعانى السامية ، فحروب الخلفاء ، والأمراء ، والقواد ليست لحمية ، أو عصبية ، أو لأخذ ثأر خاص . أو طلب مغنم ، إنما هى دفاع عن الدين ، ودفع للطغيان ، وحماية للمسلمين ، استجابة لقول الله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (البقرة : ١٩٠)

وأما المبحث الثانى فقد عرضت فيه لـ (أثر الإسلام فى معانى شعر الرثاء وأفكاره) .

وقد تبين من خلال الدراسة أن أبا تمام قد كان مرشداً ، وواعظاً ومعلماً لكل من نزلت عليه مصيبة ، أو حلت به فاجعة الموت . فهو يواسى بالدعوة إلى التصبر والجلد ، والتسليم للقدر ، والرضا بالقضاء استجابة لما أمر به الدين ، وحث عليه الرسول الكريم ﷺ .

وقد ضرب أبو تمام المثل الأسمى لموقف المسلم من المحن ، يفقد أخوته ، وبنيه ، فلا يجزع ولا ضعضع ، إنما يظهر من التسليم للقدر والصبر عند المصيبة ما يفرضه عليه إيمانه فى مثل هذه المواقف . ومن ثم فقد أثبت فى مراثيه تأثره الواضح بتعاليم الإسلام ، وبالمعانى المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، لذا كانت هذه المعانى الدواء الناجع ، الذى عالج به مواقف الفقد ، ووقع الخطوب .

وعرض المبحث الثالث لـ (أثر الإسلام فى معانى شعر الهجاء وأفكاره) .

وفيه أطل علينا أبو تمام وقد اتخذ من الهجاء وسيلة للتقويم ، والتهذيب ، ودعوة لإصلاح المجتمع ، ذلك أنه كان يعمد إلى تجريد المهجو من الصفات النبيلة ، التى حث عليها الإسلام ، ومن القيم المثلى التى حض عليها ، ولعل أبرز الصفات التى جرد منها مهجوه " الحياء " الذى هو جماع كل معروف ، كذلك هجا فيهم : الغدر ، والخيانة ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، والنفاق ، وسوء الأخلاق ، مدفوعاً فى كل ذلك إلى رغبته فى إقامة مجتمع إسلامى مثالى ، خال من كل نقيصة .

ولم يخل شعر الغزل الذى عرض له المبحث الرابع من تأثر بالإسلام : فى معانيه وأفكاره . يدلنا على ذلك قلة حديثة عن المرأة ، ثم إننا سنجد بعضاً من تلك القصائد وقد شكلت معانى آيات القرآن الكريم بناء الفكرة فيها .

أما المبحث الخامس فقد عرض لـ (أثر الإسلام فى معانى شعر الزهد وأفكاره) ولوحظ من خلاله أن أبا تمام شأنه شأن غيره من البشر قد تبعده نزواته عن جادة الطريق ، ولكن يرده طمعه فى الله ، وتعلقه برجائه ، ثم هو يؤمن بأن متاع الدنيا أمل مفقود ، وظل زائل ، وأن لكل واحد أجلاً محتوما ، ومن ثم فلا نجاة إلا بالرجوع إلى الله ، ولزوم طاعته والتوبة من الآثام ، والإخلاص فى العمل ، لعل ذلك كله يشفع للعبد عند ربه تعالى ، وفى ضوء تلك التعاليم السامية ، وجه أبو تمام نداءه ، وجأر بأعلى صوته ، لعل الغافل يستفيق .

ثم كان الفصل الثانى (أثر الإسلام فى العاطفة) وقد أثبتت الدراسة قوة عاطفة أبى تمام وثباتها فى النص كله ، وأرجعت السبب إلى إيمان أبى تمام الصادق فيما يعبر عنه ، وإلمامه التام بالحديث ، وأنه فى معظم ما عبر عنه من موضوعات ذات صلة بالدين لم يكن مفتعلاً ، أو تعينه قدرته الفنية على ذلك إنما كانت تقوده عواطفه المتقدة ، وبخاصة فى الموضوعات التى تصور الصراع بين الدين ، وأهل الكفر.

وتنتقل الدراسة إلى الجانب الفنى ، فيكون الباب الثانى (أثر الإسلام فى أدوات التعبير ووسائل التصوير) وقد جاء فى فصلين ، تناول الفصل الأول : (أثر الإسلام فى الألفاظ والتراكيب) وفيه تجلى انعكاس الإسلام على لغة الشاعر ، حيث كثرت الألفاظ والتراكيب الإسلامية فى شتى موضوعات شعره ، سواء تلك التى وقع عليها من القرآن الكريم ، أو السنة النبوية ، أو تلك التى هى من إبداع ثقافة العصر الإسلامية . ومن ثم يأتى لفظ الجلالة مئات المرات فى كثير من مواضع شعره ، وقد يأتى مضافاً إلى معنى من المعانى الإسلامية ، سبيل الله ، خليفة الله ، حكم الله سلام الله ، إرادة الله ، ..... الخ .

كذلك ترددت كثير من الألفاظ التى استحدثها الإسلام كـ : الإسلام، الإيمان ، الكفر ، الضلال النفاق ، التوحيد ، الاشراك ، النبى الرسول ، النبوة ، الوحى ، الكتاب السنة ، الصلاة الزكاة الحج ، الحساب العقاب ، الجنة ، النار ، الحشر ، النشر ، البعث .

ولم تخف دلالات تلك الألفاظ والتراكيب بما تحمله من إيحاءات خاصة ، تعكس إدراك أبى تمام بخصائص تلك المفردات والتراكيب .

كذلك تشيع فى لغته الألفاظ والتراكيب الإسلامية المستحدثة ، والتى هى استجابة لبعض العلوم الشرعية : كالفقه ، والحديث ، ومن ثم نجد ألفاظ : السهو ، الفريضة ، النفل ، التلبية ، الإحرام ، النحر ، رمى الجمرات ، تقبيل الركن .

أما تأثره بالألفاظ والتراكيب القرآنية فقد أثبت البحث عناية الشاعر الشديدة ، وفهمه الدقيق للقرآن الكريم غايةً ، ومقصداً ، الأمر الذى جعله يستلهم أكثر من خمسين آية قرآنية ، ما بين مقتبس للآيات القرآنية ، التى يوردها بهيئتها ، أو يقدم ويؤخر فيها تبعاً لما يتطلبه الوزن ، والقافية وبين مورد لمعنى الآيات بما يتشابه مع موضوعه ، وقد يعمد إلى الإشارة الموجزة التى توحى بمعنى الآية القرآنية .

ولا يختلف الحال كثيراً فى تأثره بالحديث النبوى ، إذ رأيناه يعمد إلى بعض ألفاظ الحديث ذات الدلالة المقصودة لديه ، وقد يوحى كلامه بمعنى الحديث .

ونتيجة لهذا التأثر بالقرآن الكريم ، وبالحديث النبوى ، وعامة الثقافة الإسلامية ، فقد اتسمت لغته فى الموضوعات الإسلامية بالسهولة

والوضوح ، كما اتسمت بالدقة والفصاحة ، – على غير ما هو شائع عن أبى تمام من التعقيد والغموض فى بقية شعره – .

أما الفصل الثانى فقد تناول الكشف عن (أثر الإسلام فى الخيال والتصوير) وقد أثبتت الدراسة إيمان أبى تمام الشديد ، وفهمه القويم لما أورده من صور مستمدة من القرآن الكريم ، فهو يلجأ إلى التشبيه بالأمور الغيبية كالجنة ، والنار ، ومشهد الحشر ، والنشر ، والبعث ، مما يدل على إيمانه القوى بما أخبر الله تعالى به .

كذلك قد يلجأ إلى القصص القرآنى وسيلة من وسائل تقريب المعنى ورسم الهيئة ، وبيان الحال ، كما يدفعه إعجابه بأيام الإسلام الخالدة إلى استحضار تلك الأيام ، كيوم بدر ، وأحد ، ويوم فتح مكة وغيرها ، ليتخذ منها معادلاً فى تصويره .

وقد يتخذ من الحديث الشريف رافداً من روافد بناء الصورة فى كثير من المواضع .

وبعـــــــد ..

ها هو أبو تمام ، وها هى موضوعات شعره ، فى ضوء ما عبرت عنه من معان وأفكار إسلامية ، تدل على عقيدة الرجل ، وتكشف عن تمسكه بقيم الإسلام ومثله ، وتشهد له بالغيرة ، والتضحية من أجل رفعة الدين ، وعز الإسلام والمسلمين .

ولعل تلك الشواهد الشعرية تدعو إلى الإنصاف فى الحكم وإعطاء أبى تمام ما له ، وما عليه ، بعيداً عن ترديد الاتهامات ، وتلفيقها بلا دليل ، أو برهان .

وفى الختام أدعو الله أن أكون قد وفقت فى كشف اللثام عن أثر الإسلام فى شعر أبى تمام ، إحقاقاً للحق ، وخدمة لأدبنا .

فإن وفقت فذلك مبتغاى ، وإن أخطأت فحسبى أنى قد بذلت غاية جهدى ، وفوق كل ذى علم عليم .

وبالله التوفيق.

الدكتور/ عبده إبراهيم أحمد حسن

المدينة المنورة : نوفمبر ٢٠٠٤م

شوال : ١٤٢٥ هـ

المصـــادر والمراجـــع

أولا :

- القرآن الكريم .

ثانياً :

- أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثاً . دراسة نقدية لمواقف الخصوم والأنصار . د/ عبدالله بن حمد المحارب .. مكتبة الخانجى .. القاهرة .
- أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره . د/ محمد نجيب البهبيتى. دار الفكر . مكتبة الخانجى الطبعة الثانية ١٩٧٠م .
- أخبار أبى تمام (أبو بكر محمد بن يحى الصولى) تحقيق : خليل عساكر ، محمد عبده عزام ، نظير الإسلام الهندى . المكتب التجارى للطباعة والنشر . بيروت .
- الأدب الحديث ومذاهبه . د/ محمد غنيمى هلال . دار نهضة مصر للطباعة .
- أعيان الشيعة (السيد الأمين) – بيروت .
- الأغانى (لأبى الفرج الأصبهانى ت ٣٥٦ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون طبعة دار الكتب .
- أمل الآمل فى علماء جبل عامل (للعاملى) تحقيق : حسن الأمين – الطبعة الثانية – مطبعة الإنصاف ١٩٦٠م .
- بديع التراكيب فى شعر أبى تمام (١- الكلمة والجملة) د/ منير سلطان . منشاة المعارف .

- البيان والتبيين (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٢٥٥ هـ) تحقيق : عبدالسلام هارون مطبعة دار التأليف والترجمة ، القاهرة.
- تاريخ الأدب العربى (لكارل بروكلمان) نقله إلى العربية : عبدالحليم النجاد . دار المعارف .
- تاريخ دمشق (للحافظ أبى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر ٤٤٩ – ٥٧١ هـ تحقيق : د/ شكرى فيصل ، سكينة الشهابى، مطبعة مجمع اللغة – دمشق .
- دائرة المعارف الإسلامية , المجلد الأول ، طبعة ١٩٣٢م .
- ديوان أبى تمام .. شرح الخطيب التبريزى ، تحقيق راجى الأسمر . دار الكتاب العربى اللبنانى .
- ديوان ابن الرومى . تصنيف واختيار كامل كيلانى . مطبعة التوفيق الأدبية .
- ديوان جرير . المجموعة الكاملة . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .
- رجال النجاشى (أبو العباس أحمد بن على النجاشى) . بيروت .
- سنن البيهقى : تحقيق محمد عبدالقادر العطار . نشر مكتبة دار الباز . مكة المكرمة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .
- سنن الترمذى (محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك الترمذى ٢٠٩ – ٢٧٩ هـ . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى . دار الحديث – القاهرة .
- الشعر والشعراء (لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى) تحقيق د/ مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية . بيروت .

- الشعر العربى المعاصر . قضاياه وظواهره . د/ عز الدين إسماعيل . دار لعودة . بيروت ١٩٧٢ .
- صحيح البخارى (لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل ٢٥٦ هـ) دار إحياء التراث العربى بيروت .
- طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز . تحقيق : عبدالستار أحمد فراج . دار المعارف . القاهرة .
- العصر العباسى الأول . د/ شوقى ضيف . دار المعارف . القاهرة .
- العمدة فى صناعة الشعر ونقده (لأبى الحسين بن رشيق القيروانى ٤٦٣هـ) . تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد . بيروت . دار الجيل للنشر ١٩٧٢م .
- عيار الشعر (لأبى الحسن محمد بن أحمد بن محمد العلوى المعروف بابن طباطبا ٣٢٢ هـ) تحقيق د/ طه الحاجرى ، د/ محمد زغلول سلام . شركة فن الطباعة . القاهرة ١٩٥٦م .
- الفهرست (لابن النديم ت ٣٨٥ هـ) مطبعة الاستقامة القاهرة . المكتبة التجارية .
- فى تاريخ الأدب الجاهلى . د / على الجندى . مكتبة دار التراث للنشر والتوزيع .
- الكامل فى التاريخ (لعز الدين أبى الحسن على بن أبى الكلام بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير) دار صادر . بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .
- لسان العرب (لجمال الدين محمد بن المكرم . المعروف بابن منظور ٧١١ هـ) نسخة مصورة من مطبعة بولاق . إشراف الدار المصرية للتأليف والترجمة .

- المحاسن والأضداد (لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر (لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى) تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد . مطبعة دار السعادة . القاهرة ١٩٥٨م .
- مسند الشهاب . تحقيق حمد بن عبدالمجيد السلفى . طبعة مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م .
- معجم الأدباء (لياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ) .
- الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء (للمرزبانى ت ٣٨٤ هـ) تحقيق محمد البجاوى ، دار نهضة مصر ١٩٥٦م .
- النجوم الزاهرة (لابن تغرى بردى ت : ٨٧٤ هـ) طبعة دار الكتب ١٩٣٠م .
- النقد الأدبى الحديث . د/ محمد غنيمى هلال . دار نهضة مصر .
- النقد العربى الحديث ومذاهبه . د/ محمد عبدالمنعم خفاجى . مكتبة الكليات الأزهرية .
- هبة الأيام فيم يتعلق بأبى تمام (ليوسف البديعى الموصلى ت ١٠٩٧ هـ) تحقيق محمود مصطفى . مطبعة العلوم ١٩٣٤م .
- وفيات الأعيان (لأبى العباس شمس الدين بن خلكان ت ٦٨١ هـ) تحقيق إحسان دار صادر . بيروت .